مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة
سُورَةُ ٱلْمُؤْمِنُونَ

أ.د خالد بن حامد الحازمي
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المؤمنون

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المؤمنون

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ
٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ
مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧
وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾

ابتدأ الله سبحانه وتعالى سورة المؤمنون بإظهار وبيان ما يتحقق به فلاح المؤمنين، ومعالم وأركان فوزهم ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ قد أدرك المؤمنون الفوز، وسَعِدُوا، ونالوا درجات الفلاح. حتى أن اسم السورة حمل وصفهم ونعتهم: سورة **(المؤمنون)** فأوضح وأكد اسمها ومطلعها منزلة الإيمان والمؤمنين عند الله تعالى، والدرجات العظيمة، والمكتسبات الجليلة التي يفوزون بها من الله عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ قد أدركوا الفوز وسَعِدُوا ونجوا من كل شر، ونالوا درجات الفلاح، والظفر بالخير كله، الذي تعالت عظمته حتى بلغ من الوصف أنه لم يُحدد نوعه وحجمه وكثرته، ليستوعب عُلُو المبالغة وقمتها من غير تحديد. كل ذلك جزاء وثواباً من الله تعالى الكريم الغني الرحمن للمؤمنين الذين اتصفوا بما وصفهم به عَزَّ وجل في هذه السورة الكريمة.

واستهلت الآية الكريمة بأداة إثبات الفلاح للمؤمنين وهو حرف التحقيق ﴿ قَدۡ ﴾ الذي أفاد تأكيد ما بعده تأكيداً متحققاً؛ بحصول المؤمنين على كمال الفلاح. وهو أبلغ من تجريد الفعل من هذا الحرف البياني البديع كالقول: (أفلح المؤمنون). من غير ذكر هذا الحرف ﴿ قَدۡ ﴾ فقد أكد هذا الحرف تحقق الفلاح ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ والفلاح هو إدراك وتحصيل المطلوب، والظفر به. ومن بلاغة البيان وقوة استيعابه لكمال الخير والمحامد هو تأكيد تحققه بحرف ﴿ قَدۡ ﴾ مع مجيء فعل الفلاح ﴿ أَفۡلَحَ ﴾ بصيغة الماضي؛ لأمر قادم

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ليفد تأكيد تحققه وحصوله، والجزم به، وانهم قد نالوه حالاً، بِتَصّييرهم إليه بعونه وتوفيقه وكريم عطائه جَلَّ جلاله. كما أنه لم يعين ويحدد حجم ونوع الفلاح، وما نالهم منه، ليكون في ذلك المزيد من التشويق، مع شد الانتباه إلى مضمونه ومكوناته، فينشغل البال بإجماله، دون تفاصيله، وليستوعب جميع ما وعد الله تعالى به، وأعده للمؤمنين، من الجنان والأنهار، وما تشتهيه الأنفس وتلذ العين، وما يُحَلَّوَن به من الذهب الفضة واللؤلؤ، والأنهار الجارية، من الماء غير الآسن، وأنهار من لبن، وأنهار من خمر، وأنهار من عسل مصفى، ومالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولم يخطر ببال بشر، وأعظمها رؤية الله تبارك وتعالى. وهذا من عمق البيان وقوة بلاغته.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى لتحقيق هذا الفلاح أوصافاً أخرى مع الإيمان. لأن الإيمان اعتقاد بالقلب، وهو التصديق بالله تعالى ورُسُلِهِ وكتبه والملائكة واليوم الاخر، وبالقدر خيره وشره، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، وكل ما هو متعلق بالإيمان. بما يفيد أن الإنسان إذا آمن احتاج أن يجمع تلك الأوصاف إلى إيمانه حتى يتحقق له الفلاح الموعود به. بما يفيد أن الإيمان لا ينعزل عن تلك الوصاف، وأنه الشاهد والمؤكد لصدقه، فالذي يشهد لصدق الإيمان وحقيقته هو العمل بما أمر الله تعالى. فالركن الأول لتحصيل الفلاح والفوز به هو الإيمان، فإذا تحقق لم يبق له إلا بقية الأعمال التي ذكرها الله ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة. كما أن في جعل الإيمان هو المرتكز الأول، دليل على أن من حَصَّل الإيمان فقد حصل على أعظم الأركان، وأن محطة تصديق القلب، واليقين بالإيمان هي مرحلة ومنطقة الصمود التي يعتمد عليها العمل بالأركان.

فقد ربط السياق الكريم بين الإيمان وبين متطلباته ولوازمه لتحقيق الفلاح، بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ وتكريره ست مرات؛ ليقترن بكل لازم من لوازم تحقق الفلاح، وذلك إظهاراً وإبرازاً وتأكيداً لتلك الواجبات واللوازم. ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ ﴾ فجملة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ ﴾ تفيد التوصيف المتعلق بالمؤمنين، بأنهم المؤمنون المتصفون بالأوصاف التي تعقب ما خص به المؤمنين من الفلاح.

فبعد التحفيز والترغيب لهم بنعمة الفلاح، ومكسبه العظيم، أوضح لهم في تدرج عظيم موجباته. التي هي الأوصاف التي تُوصل المؤمن إلى الفلاح، وهي أمور متعلقة بالعبادة، وبكيفية أدائها من الخشوع الجامع لجميع محامد الأداء وكماله، والموضحة لما يجب أن يتحلى به المؤمن من الهيبة والإجلال لله رب العالمين. ففيها أوصاف متعلقة بعلاقة العبد بربه. وأوصاف متعلقة بمسلك المؤمن في ذاته، من علو مكارم الأخلاق ورفعتها، والإعراض عن اللغو، الجامع لكل أنواع الرذائل الخلقية. وكذلك الأوصاف التعبدية المتعلقة بعلاقة العباد مع بعضهم البعض من الإحسان بالعطاء، وإخراج الزكاة لمستحقيها. ثم حفظ الأعراض بحفظ الفروج وصيانتها من الفاحشة.

فقال تعالى عن أول الأوصاف، وهي إقامة الصلاة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ المتصفون بالخشوع حين إقامتهم للصلاة، وهو: السكون فيها، والخشية والخوف، فينجم عن ذلك الانشغال بها، وعدم الالتفات لغيرها فكراً وحركة، وذلك نتيجة انشغال القلب بها، والخوف من الله تبارك وتعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه له، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[١] وهو من فرائض الصلاة. فالخشوع يجمع مجامع السكينة فيها. والانشغال بها عن غيرها، فلا يلتفت بقلبه لأمور الدنيا، ولا بجسمه لغير أمور الصلاة، ناظراً لموقع سجوده، فلا يلتفت النظر لغير موقع السجود. وبالتالي تكون الجوارح في خضوع وهدوء. مما يفيد: أن على المؤمن أن يجتهد كل الاجتهاد في تحقيق الخشوع من التذلل والخضوع، واستشعار هيبة الوقوف أمام ربه تبارك وتعالى.

ومن دقائق نص الآية الكريمة أن الوصف عدل عن ذكر الأمر بإقامة الصلاة إلى مسألة الخشوع ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ ليدل على أن إقامة الصلاة أمر متحقق من المؤمن، فلا يحتاج إلى أمره بها، فتجاوز الأمر إلى روح إقامتها، وهو الخشوع فيها. فارتقى التوجيه الكريم بالبيان إلى لُبِّهَا، وهو الخشوع فيها. كما استخدام البيان حرف ﴿ فِي ﴾ ليدل على الظرفية المكانية والزمانية، وإفادة الملازمة والمداومة على الخشوع حين إقامتها: مكاناً وزماناً، بأن يستغرق الخشوع حال الصلاة كلها، وذلك حين إقامتها في المكان الذي يُصَلَّى فيه، والزمن الذي تُؤَدَّى فيه ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ فيبذل المسلم طاقته في تحصيل الخشوع، والمداومة عليه، حتى يكون الخشوع صفة له في صلاته.

وأما الصفة الثانية التي هي من لوازم الإيمان المحقق للفلاح؛ فهي البعد والإعراض عن للغو: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ والإعراض هو: الصد، وعدم الإقبال عليه، فهو يفيد التولي والترك، فيشمل بذلك الإعراض معنى: الترك من قِبَلِ جميع حواس المؤمن، سمعاً وبصراً وقولاً، ومشاركة بأي وسيلة كانت، فيترتب على ذلك: ترك سماع أقوال اللغو، والكلام فيه، أو الجلوس له، أو المجيء إليه، فضلاً عن الجلوس له. وأما اللغو فهو: كل قول وفعل لا نفع ولا خير فيه. فهو ما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه نفع، ولا فائدة. فهم يتنزهون عما يكرهه الله تعالى عموماً، أو أن فيه مضيعة للوقت عن طاعة الله تبارك وتعالى. فيكون في تحصيل البعد والإعراض عن الغو دلالة على الترفع عما هو أعظم من اللغو. فإن الترفع عن اللغو دليل على أن هذا المؤمن المترفع هو أشد بعداً عما هو أشد من الغو، فيكون حذراً من المحرمات والمكروهات، ومتجنباً لها. فهو لما هو أبعد من الغو أكثر بعداً وإعراضاً وتجنباً.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٤٩)

وأما الصفة الثالثة التي هي من لوازم الإيمان المحقق للفلاح؛ فهي: إيتاء الزكاة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ أي: مؤدون للزكاة، فيخرجون زكاة أموالهم؛ بمقاديرها، ومصارفها، وفق تفاصيل أحكامها. كما تشمل دلالة كلمة الزكاة استيفائها لجميع أنواعها، سو كانت زكاة البدن، أو زكاة الأموال، أو زكاة الأنعام، أو عروض التجارة، أو غيرها من مفردات أنواعها. ومن دقائق السياق أن تم البيان لأدائها بالفعل ﴿ فَٰعِلُونَ ﴾ الذي يعطي دلالة الفعل والتنفيذ المستمر، ومن غير تأخير، وأنه يتم استيفاؤها بكمال الأداء، وفق المطلوب منهم.

وأما الصفة الرابعة التي هي من لوازم الإيمان المحقق للفلاح؛ فهي: حفظ الفروج عن الحرام ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ أي: ممسكون لفروجهم بالعفاف. فَحَفِظُوا فروجهم عن غير ما أحله الله تعالى لهم، وبالتالي حفظوها من الوقوع في الحرام. والحفظ يدل على الوقاية والتحرز. فلا يقعون فيما حرمه الله تعالى من الزنا ونحوه. مما يفيد توقيهم لدواعي وأسباب الزنا، وجميع المحرمات المتعلقة بالفروج، حتى لا يقع فيها المؤمن.

ودلالة كلمة ﴿ حَٰفِظُونَ ﴾ تدل على التوقي، الذي هو الوقاية من الوقوع فيه، فجاء الوصف لحفظ فروجهم عن الزنا بالوقاية من مثيراته ودواعيه أصلاً، بما يدل على أنهم تخطوا وتجاوزوا الوقوع فيه إلى الحذر، بتوقي أسباب تحصيله، فلا يتعرضون أصلاً بأنفسهم لدواعيه، مما يفيد قوة الحذر وشدته عند هؤلاء المؤمنين المتصفون بالفلاح. فحفظوا فروجهم عن دواعي الوقوع فيه. باستثناء من استثناهم الله تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ إلا من أزواجهم اللائي أحلَّهُن الله للرجال بالنكاح، فلا يجب عليهم التحفظ من زوجاتهم؛ وما ملكة يمينهم من الإيماء، فإنهم مستثنون من حفظ الفروج على أزواجهم، وعلى ما يملكون من الإيماء. فلا لوم عليهم معهن، لأن الله تعالى جعلهم حلالاً.

فمن صفات هؤلاء المؤمنين الذي ينالهم الفلاح أنهم ممسكون فروجهم عن غير زوجاتهم وما ملكة أيمانهم. مما يبين حفظ الإسلام للأعراض، والأنساب، وغرس التواد، لأن استباحة الفروج المحرمة يثير العداوة والبغضاء، وربما أدى إلى سفك الدماء بسببها. مما يدل أن مقصد شهوة الفروج ليست لإشباعها بالعبث في الأعراض، بل لتحصيل النسل، وإعفاف الفروج بما أحله الله تعالى. فهو دين نظام، وحفظ لحياة الناس من لوثة الزنا، وما يترتب عليها من المفاسد العظيمة. وقد وردت الإباحة للأزواج وما ملكة الأيمان من الإيماء بقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ والتي أفادت: تعليل الإباحة وتوكيدها بأنهم غير مؤاخذين بما أذن الله تعالى لهم فيه، وأباحه لهم، فلا يُلامون على ذلك.

ثم يذكر سبحانه وتعالى من تجاوز الحلال إلى الحرام ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فمن طلب والتمس غير الذي أحله الله تعالى له من الأزواج وما ملكة اليمين من الإيماء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فإن هؤلاء هم الذين قد تجاوزوا النهي، وتعدوا ما أحل الله تعالى إلى ما لا يحل لهم من الحرام ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فهؤلاء هم الظالمون الجائرون المتجاوزون لحدود الله تعالى، وقد تناهوا وتكامل فيهم التعدي والجرأة على ما حرم الله عَزَّ وجل، وذلك بمجاوزة الحد من الحلال إلى الحرام. وفي هذا غاية النهي والتحذير والبيان من أن مجاوزة الحلال إلى الحرام منافي للإيمان، وتحقيق الفلاح. مما يتوجب على المؤمن والمؤمنة صيانة فروجهم عن الحرام، والابتعاد عن دواعي ذلك، وأسباب الوقوع فيما حرم الله تبارك وتعالى. وبالتالي يحرم على المؤمن والمؤمنة التعرض لما يُوقع في الحرام. أو أن يستثير غيره، ويثير غريزته للوقوع في الزنا.

وأما الصفة الخامسة التي هي من لوازم الإيمان المحقق للفلاح؛ فهي: حفظ الأمانة، وحفظ العهود، وتَوَقِّي نقضها بعد إبرامها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي: وهم الذين لِمَا ائتمنوا عليه من الأمانات محافظون عليها، وقد وردت الأمانات بصيغة العموم، لتشمل ما بين العبد وربه من التكاليف، وكذلك التي بين العبد وغيره من الناس، فهو محافظ عليها. وكذلك محافظ على ما أوكل إليه من المواثيق والعقود، فلا ينقضها. وسواء ما كان مع ربه تبارك وتعالى أو مع جنسه من العباد. وكلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ تفيد مراعاتها ورعايتها بالحفظ والصون من النقض، والبخس، والتلاعب، والإجحاف، واستغلال المتغيرات. فتجد المؤمن الْمُبشَّر بالفلاح، محافظ على لأمانات والعهود، والوعود، والمواعيد التي يَعِدُ بها غيره.

وأما الصفة السادسة التي هي من لوازم الإيمان المحقق للفلاح؛ فهي: حفظ الصلاة. وحفظ جميع ما يؤثر عليها، ويخل بها، فيُنقِصُ من إقامتها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يواظبون على أدائها، ويحافظون على القيام بصلاتهم خير قيام، فلا يُخلون بشيء من حقوق الصلاة. ويكون حفظ الصلاة بكمال أدائها، من حيث وقتها، وما يلزم لها من الوضوء واستقبال القبلة، وجميع شروطها وأركانها وواجباتها، وسننها وآدابها. وقد كانت هي أول ما ابتدأ بها وصف المؤمنين في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ فخصها عند أول ذكرها بالخشوع حين إقامتهم للصلاة. وهنا أكدها بالمحافظة عليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فختم بها صفات المؤمنين المفلحين. مما يدل على عظيم منزلتها ومكانتها.

ثم جاء بعدها مباشرة أعظم المثوبة وأشملها وأكملها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ فأولئك الذين اتصفوا بتلك الأوصاف ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ هم الذين ينتقل ميراث غيرهم لهم من الجنان، والتي كانت للكافرين فيما لو أسلموا، فتنتقل إليهم زيادة في كرم العطاء من الله الكريم العزيز. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة[١] ثم يوضح تبارك وتعالى نوع وصفة ما يرثونه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فهؤلاء الموصوفون بتلك الأوصاف ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ وهو أعلى الجنة، وأوسطها، لأن وسط الجنة هو أعلاها. وقد ربحوا هذه المنزلة لأنهم تحلوا بأعلى صفات الخير التي هي الفلاح، فكانوا هم أهل الفلاح الذين يرثون أعلى الجنة وأفضلها. ثم يوضح ويبين تبارك وتعالى عظيم نعيم أهلها، بأنهم لا يخرجون منها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فهم في هذه الجنان باقون، ثابتون، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها. فهو خلود مؤبد، لا يمسهم فيها نصب ولا تعب، ولا كدر، ولا منغصات، فلا يبغون عنها تحولاً، لما فيها من كمال النعيم المقيم الذي لا يفنى ولا يفنون فيها أبداً. اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة بمنك وفضلك ورحمتك من غير سابق حساب ولا عذاب. ووالدينا وأهلينا، والمسلمين أجمعين يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، يا رب العالمين.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

بعد أن أوضح مطلع سورة المؤمنون أوصاف المؤمنين من أهل الفلاح، الذي يتحقق لهم بها الفردوس الأعلى من الجنة، ينتقل الخطاب الكريم إلى بيان حقيقة خلق الإنسان، ومراحل أطوار خلقه، فيقول تعالى عن أصل هذا الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ لقد خلق الله تبارك وتعالى جنس هذا الإنسان من طين، ابتداء من آدم عليه السلام ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ فهو مخلوق من سلالة من طين، لأنه اسّتُلَّ من كل الأرض. فالنطفة سلالة، والولد سليل، وهو أيضاً سلالة، فالسلالة هي: الْمُسْتَلَّةُ من غيرها. وآدم عليه السلام مستل من الطين، وأولاده مُستلُّون منه. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: كان آدم خُلِق

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/١٧)

من تربة أُخِذَت من أديم الأرض[١] فَخُلِق أبناء آدم عليه السلام من سلالة أبيهم آدم عليه السلام. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أنه سبحانه وتعالى خلق جوهر الإنسان أولاً من طين، لأن الأصل آدم، وهو من طين خالص. وأولاده من طين ومني. وقيل السلالة: الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعك، فالذي يخرج هو السلالة. قاله الكلبي[٢] والسُّلالة هي إخراج الشيء من الشيء. قال الزجاج رحمه الله تعالى: والسُّلالة: فُعالة، وهي القليل مما يُنْسَل[٣] مما يدل على الخلاصة والقلة في أصل تكوين هذا الإنسان، وأن أصله عصارة الطين وخلاصتها.

وابتدأت الآية الكريمة بأداة التوكيد ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ كما بدأ به مطلع السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ والذي يفيد تأكيد ما بعده تأكيداً متحققاً؛ على أن أصل الإنسان من سلالة الطين، وهو أبلغ من تجريد الفعل من هذا الحرف البياني البديع كالقول: (خلقنا الإنسان من سلالة من طين). من غير ذكر هذا الحرف ﴿ وَلَقَدْ ﴾ المؤكد لما بعده. فقد أكد هذا الحرف تحقق الخلق من سلالة من طين، وهو خلاصتها. فيقرر سبحانه وتعالى بأن الإنشاء له ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ أي: أنشأنا هذا الإنسان بصنعنا له على أطوار ومراحل، فيظهر بذلك عظيم تدبيره سبحانه وتعالى في الخلق والإنشاء، بما يفيد انفراد الله تعالى بالخلق، وعظيم القدرة، التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه عَزَّ في علاه. وأن الله تعالى يخلق ما يشاء، وكيف يشاء. وبالتالي فإن الإنسان مربوب لربه تبارك وتعالى. فيجب عليه الاعتبار، والقيام بلوازم الربوبية؛ من كمال الطاعة الخالصة لربه جَلَّ جلاله. وفي هذا امتنان عظيم من رب العالمين بأن أوجد هذا الإنسان من عدم. مما يستوجب عليهم شكر ربهم وتعظيمه جَلَّ جلاله، وتحقيق أوصاف المؤمنين التي بيَّنَها لهم عَزَّ وجل في مطلع السورة.

فإن أصل خلقكم الأول من طين، بناء على أصل خلق أبو البشرية آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى من التراب. فأعاد الله سبحانه وتعالى أفهام العباد بذلك إلى الأصل في خلق أبيهم آدم، بأنه خُلِقَ من الطين، ثم خَلَق زوجه حواء منه، ثم خلق أولاده منهما، فإنه عَزَّ وجل أعاد الْمُخَاطَبين إلى أصلهم الأول، وهو التراب. وهو الأصل الذي يدل عليه ويؤكده تحول أجسام بني آدم عند دفنهم إلى تراب، والذي يمثل أصله الأول، فإن هناك تجانس في الحقيقة بين مادة أصل جنس هذا الإنسان، وبين ما يتحول إليه رفاته، والتي يؤكد

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٧)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٧٧/٣)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٥/٥)

بعضها بعضا حقيقة أصل جنس الإنسان. وهذا من دقائق الإعلام والتفهيم، بأن يبدأ تعليم الجاهل من أصل المعرفة، ثم الترقي معه وبه إلى ما هو أعلى.

ثم يترقى بهم سبحانه وتعالى إلى ما يعايشونه من الخلق والتخليق، فيبين عَزَّ وجل المراحل المتتالية لخلق الإنسان في رحم الأم ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أي: ثم جعلنا خلق هذا الإنسان عبارة عن نطفة من مني، تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وسُمّيّ نطفة لقلته، إذ هي قطرة صغيرة. فهو إيجاد له بعد العدم من تلك النطفة. وحفظها بقدرته سبحانه وتعالى ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو الرحم، الذي خلقه تبارك وتعالى في جوف الأنثى، ليكون وعاء للحمل، فتكون هذه النطفة وتحولاتها في حرز من الاستقرار والثبات، والتمكن من الاستقرار الذي قضى الله تعالى به حتى بلوغ أمره لما بعده من أطوار الخلق والتكوين.

ثم يتتابع البيان الكريم إلى تفاصيل أطوار خلق هذا الإنسان في القرار المكين، الذي هو رحم أمه ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فتتحول هذه النطفة بقدرة الله تعالى إلى علقة ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ فبالرغم من صغر حجم هذه النطفة وضعفها إلا أنها تتحول بقدرته عَزَّ وجل إلى علقة ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ وهو الدم الجامد الذي تحول وتَكَوَّنَ من المني الأبيض، إلى قطعة دم حمراء. فأصبحت أقوى مما كانت عليه.

ثم تتحول هذه العلقة التي هي عبارة عن دم أحمر إلى لحمة كالمضغة الصغيرة التي يمضغها الإنسان ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ وهي: اللحمة الصغيرة، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: سُميت بذلك لأنها بقدر ما يُمضغ[١] فأصبحت أقوى من المرحلة السابقة. ثم تتحول هذه اللحمة التي هي بقدر المضغة إلى عظام ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ فَيُحَوِّلُ ويُصيِّرُ سبحانه وتعالى هذه اللحمة الصغيرة إلى عظام تتشكل بقدرته عَزَّ وجل على أشكال مختلفة من العظام الذي يمثل هيكل الإنسان، ليصبح هذا الطور أقوى من المرحلة السابقة.

ثم قال تعالى ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ أي: يشتد لحم هذا المخلوق على هذه العظام، بصورته وشكله وحجمه الذي أراده الله سبحانه وتعالى، إذ يكسي ربنا سبحانه وتعالى هذه العظام بأشكالها وأحجامها

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٧٩)

المختلفة لحماً بقدرته العظيمة، فيتهيأ ويتكون هذا لإنسان بقدرة الخلاق العظيم على شكله وصورته في أحسن تقويم، من الرأس والوجه حتى أسفل وأتحت ما يكون منه، وهي أقدامه التي يمشي عليها. فسبحان الخلاق العظيم. والحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

ثم تُنفخ فيه الروح بأمر الله تعالى، فيصبح خلقاً مختلفاً ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فيصبح خلقاً آخر، قد تحول من الجمود إلى الحركة، ومن مني وعلقة ومضغة ليتكامل فيخرج إلى الدنيا في أحسن تقويم، ثم يترقى في تكوينه وقواه المختلفة إلى شخص يفكر ويختار، ويتكلم، ويأمر ويطلب، ويعمل وينجز ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله، وكثرة خيراته، وعمت بركاته. وجملة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ تفيد التعظيم والتقديس لجنابه سبحانه وتعالى، بما أفاض من خيراته على هذا الإنسان من الإنعام، ابتداء من خلقه وإيجاده له إلى جميع أطوار حياته. فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله، وكثرة خيراته، وعمت بركاته، ودوام خيره على خلقه تبارك وتعالى.

فَجَلَّ جلاله هو الذي أتقن ما خلق ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فكان أحسن الصانعين، الذي لا يستطيع أن يماثله أحد من خلقه، فانتفى بذلك المثيل والشبيه والشريك له عَزَّ وجل. فاستحق ربنا تبارك وتعالى من هذا المخلوق التعظيم والتبجيل والطاعة والامتثال، والثناء والحمد والشكر، فقد كثر خيره وعطاؤه، وبركاته، وجميل تدبيره، وحُسن خلقه سبحانه وتعالى. فقد نَزَّهَت جملة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ربنا عَزَّ وجل أكمل تنزيه، تنزيهاً عن كل شبيه ومثيل وشريك بدلالة عظيم ما خلق، وجمال ما صنع، وبديع كل مخلوق خلقه وصوره، ومنها خلق هذا الإنسان.

ثم ينتقل البيان إلى إيضاح نهاية الإنسان ومآله الذي سيؤول إليه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ فبعد هذا الخلق والإيجاد، يتوقف كل شيء من هذا الإنسان بموته، حين تخرج الروح من جسده، ليتبين أن الذي خلق هو الذي يُميت، ثم هو الذي يعيد بعثكم بعد موتكم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فكما أنشأكم أول مرة؛ فإنه تبارك وتعالى يُعيد خلقكم مرة أخرى؛ ببعثكم من القبور. وفي هذا استدلال عظيم على إثبات البعث. فإن الذي خلق هذا الإنسان بهذه الأطوار المتتالية العجيبة العظيمة، حتى أصبح هذا الإنسان في أحسن تقويم، فإنه لا يعجزه جَلَّ جلاله بعثكم يوم القيامة، فتعودون كما كنتم من الخلقة والوجود. فأين تكمن المشكلة والصعوبة؟ فإن في هذا تقرير للعباد بالبعث بعد الموت، بأقوى الحجج والبراهين، وهو الإيجاد بهذه الأطوار المتعاقبة ثم الموت. مما يُوجب عليكم أيها العباد الطاعة والامتثال لربكم. ومن دقائق البيان الانتقال من

الإيجاد بالخلق إلى الموت بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد الترتيب المتتالي، وكذلك تم إعادة حرف الترتيب حال الانتقال من الموت إلى إعادة الحياة بالبعث والنشور ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فهو غاية الدقة في البيان.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فبعد أن أوضح تبارك وتعالى عظيم صنعه في خلق هذا الإنسان، بما يدل على عظيم قدرته عَزَّ وجل، يتدرج ويرتقي السياق الكريم إلى بيان مظاهر وحقائق قدرته في خلق السماوات، وغيرها مما ينعم الإنسان به من عظائم المخلوقات وتعددها وتنوعها، ومستهلاً ذلك عَزَّ وجل بخلق السماوات ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ فبدأ البيان الكريم بأداة التوكيد والتحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ كما بدأ به مطلع السورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وبدأ به آيات أطوار خلق الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ فابتدأ سبحانه وتعالى بيان خلق السماوات وغيرها من المخلوقات بحرف التوكيد والتحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ والذي يفيد تأكيد ما بعده تأكيداً متحققاً؛ فيقرر سبحانه وتعالى أن الإنشاء له وحده لا شريك له ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ فنسب سبحانه وتعالى الخلق له عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ ثم عَيَّنَ المخلوق تحديداً ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أي: خلقنا فوقكم أيها الناس المُخَاطَبين سبع سماوات ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ وأفادت كلمة ﴿ طَرَائِقَ ﴾ التتابع والتكرار لخلق السماوات السبع بعضها فوق بعض.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والعرب تُسَمِّي كل شيء فوق شيء: طريقة. وإنما قيل للسماوات السبع: سبع طرائق، لأن بعضهن فوق بعض، فكل سماء منهن طريقة[١] يُقال: طارقت الشيء: إذا جعلت بعضه فوق بعض[٢] فكل شيء فوقه مثله فهو طريقة. فإذا قلت: طارقت الشيء، فيعني ذلك أنك جعلت بعضه فوق بعض. ومع ذلك فإنها تجمع معها دلالة أخرى، فقد ذكر القرطبي والزمخشري وغيرهم، رحمهم الله تعالى أنه قيل: لأنها طرائق الملائكة[٣] أي طرق الملائكة. وفي هذا بيان لعظيم ما خلق الله سبحانه وتعالى من السماوات السبع، فكما خلقناكم وصورناكم بهذا الخلق العظيم العجيب، فكذلك هناك خلق أعظم من خلقكم، وهي خلق السماوات المرتفعة بغير عمد، وما فيها من الكواكب التي لا تُعد ولا تُحصى، والتي أبرزها الشمس والقمر، ومع كل هذا الخلق العظيم فإن علمنا به قائم لا يفوت عنا شيء منه ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ فنفى سبحانه وتعالى أقل ما يكون من أسباب انتفاء العلم، وهو الغفلة، التي هي السهو اليسير، فدل نفي الغفلة على كمال العلم مع استمراره وعدم انقطاعه، وشموله لما خلق سبحانه وتعالى. بما يفيد انتبهوا واحذروا فإن الله تعالى مُطَّلِع عليكم فرداً فرداً، فلا يفوته من أمركم وشأنكم شيئاً، سواء لمحاسبتكم بما يكون منكم، أو عن حاجتكم، أو عن دعائكم إن دعوتموه وسألتموه، فهو بكم عليم سبحانه وتعالى. وكذلك لسنا بغافلين عن حفظكم، وعن حفظ السماوات من أن تسقط عليكم، ولسنا بغافلين عن أرزاقكم، ولسنا بغافلين عن جميع ما خلقنا، فانتبهوا واحذروا، وأطيعوا ربكم، وأتمروا بما أمركم به رسوله إليكم صلى الله عليه وسلم، واطلبوا حاجاتكم التي يعلمها، ويعلم مقدارها، فلا يخفى عليه منها شيء.

ثم يذكر تبارك وتعالى إنعامه على عباده بما أنزل من السماء من الماء الممطر على الأرض، وحفظه لهذا الماء في الأرض، لتنتفعوا به في شربكم، وتحصيل الأرزاق المتنوعة منه بحسب حاجتكم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ فبدأ الله تبارك وتعالى إظهار هذه النعمة بالمصدر الذي جعله لها، وهو الماء ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ فيا أيها العباد قد أنزلنا لكم بقدرتنا ماء من السماء بقدر محدد، بتقديرنا له، فلا يكون مجحفاً في النزول، فيحصل لكم به الجدب والجوع والعطش، والمعاناة المتعبة في البحث عنه، وكذلك فإن إنزاله كائن بالقدر الذي لا تحدث معه الفواجع بالفيضانات والهلاك والتدمير. بل بالقدر الذي ينعشكم به، ولذلك يفرح الناس بإطلالته، وعند نزوله، وبعد نزوله، تأكيداً على النعمة، وتأكيداً على أنه مصدر فرح وسرور، لأن الله تعالى قدره تقديراً محكماً. فالاستبشار به دليل على عدم الخوف منه،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦/١٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٧/٥)

(٣) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٧٥/١٢) والزمخشري، الكشاف (١٧٨/٣)

لِمَا اعتادوا من كريم عطاء ربهم، والفرح به عند نزوله تأكيد لما اعتقدوا واعتادوا من ربهم تبارك وتعالى، ومزيد الفرح والاستئناس به بعد نزوله تأكيد ثالث بأن النتيجة كانت كما يحبون ويأملون. فتلك المشاعر البشرية تدل وتفيد ما بينه ربنا تبارك وتعالى بأنه ينزل هذا الماء بالقدر الذي يحصل منه الخير، ولا يحصل منه الشر.

وسَمَّى اللهُ تعالى حبات المطر بما ستكون عليه ﴿ مَآءَۢ ﴾ أي: بما سيكون عليه بعد نزوله، وبما سيكون عليه من أثر، وبما سوف يُستعمل له، ليفيد النتيجة والمحصلة التي ينبت بها الزرع، فهي القطرات المتتابعة التي سيكون منها الماء، فإنه سيتحول بمجموع تلك القطرات المتتالية والمتعاقبة بما يتكون منه الماء الذي تحيا به الأرض بعد موتها. فالهدف من المطر هو تحصيل الماء، لتلبية حاجتكم وافتقاركم إليه، فورد ذكر المحصِّلَة عن هيئة المطر بالماء، حتى يتناسب ذكر الماء مع مقام الحاجة القائمة. وهذا من دقائق البيان وإعجازه وقوة بلاغته.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تقدير حفظه الماء للناس، فَعَيّنَ لهم مكان حفظه بأنه في الأرض ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: فجعلنا مستقر وموطن هذا الماء في الأرض بعد نزوله من السماء. فإنا قد حفظناه مستقراً في الأرض. وورد التعبير عن حفظه في الأرض بالإسكان ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ دلالة على المكوث والاستقرار، والسكون الذي يفيد طيلة الاستدامة، ليدوم تحصيل الانتفاع به. ثم يبين قدرته عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ فكما أنزلناه بقدرتنا وتقديرنا له، وحفظنا له، فإننا على أن نذهب به، ونفقركم به، قادرون تمام المقدرة على ذلك. وفي هذا بيان وإظهار لنعمته عَزَّ وجل في الإنعام، ونعمته في حفض ما أنعم به. مع بيان قدرته على إزالة تلك النعمة التي تستوجب منكم شكره وطاعته، واتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن من أوجد النعمة قادر على إزالتها، فحافظوا عليها بالطاعة والشكر والإجلال للمنعم بما هو حق له تبارك وتعالى.

ثم يذكر سبحانه وتعالى ما ترتب على نعمة إنزال الماء، من نشوء المزروعات، التي هي من أهم غايات نزول المطر، ليستثير العقول على دقائق خلقه وتقديره وترتيبه جَلَّ جلاله ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فبعد بيان نعمة إنزال الماء يذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بالإنبات ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ فأوجد لكم بهذا الماء الزروع والحدائق والبساتين والمزارع. وخص بالذكر من مكوناتها تخصيصاً وتعيناً: النخيل والأعناب ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ ﴾ فمع تقارب هذه الأنواع مما تنبت الأرض إلا أن في تعيينها ما يدل على فضلها وبركتها، وقوة فائدتها. مبتدأ سبحانه وتعالى بفاكهة النخيل

﴿ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ ثم العنب ﴿ وَأَعْنَـٰبٍ ﴾. وبصيغة الجمع؛ ليدل على الكثرة. ثم ذكر تبارك وتعالى عموم الفواكه ﴿ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ ليشمل كل ما يُزْرَع في الأرض من الفواكه التي لا حصر لأنواعها وأشكالها وألوانها، فهناك أرض تستوعب زراعة الأعشاب والخضروات، وأرض تستوعب الأشجار الباسقات، وأرض تستوعب الحشائش، وأرض تستوعب الجميع. ثم ذكر تبارك وتعالى عملية الانتفاع الخاصة بالأكل ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي تأكلون ما تريدون وتشتهون من أنواعها المتعددة والمختلفة.

ومن دقائق الإعجاز في البيان والإيضاح هو استثارة الذهن نحو التأمل والتفكر والتدبر في نعمة نزول الماء من السماء، التي لا يقدر عليها أحد غير الله تعالى، لينتفي بتلك القدرة الخاصة كل شريك أشركه المشركون مع الله عَزَّ وجل. وذكر سبحانه وتعالى علة الإنشاء، بأنها لكم، فأنتم المخصوصون بذلك ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ مما يفيد أن غيركم تبعاً لكم، من الأنعام، والحيوان، والطيور، وما يدب، وما يزحف على بطنه من المخلوقات التي لا يحصيها إلا الله تعالى في نوعها وعددها. كما وردة كلمة الإنشاء ﴿ فَأَنشَأْنَا ﴾ ملتصقة ومرتبطة بالمنعم المتكلم سبحانه وتعالى، تعظيماً لما خلق سبحانه وتعالى. وتدل كلمة الإنشاء ﴿ فَأَنشَأْنَا ﴾ على الإيجاد الجديد، بالإحداث والخلق، ليتبين للإنسان أن الله تعالى هو الذي جعل الارتباط بين السبب الذي هو الماء، وما ينتج عنه من الإنشاء ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ فأنشأنا لكم بالماء الحدائق والزروع المتنوعة. فلولا هذا التقدير في الترابط لما نشأ الإنبات من هذا الماء، الذي جعل الله تعالى به حياة كل شيء. ولذلك ربط بينهما بدلالة حرف العلة والسبب ﴿ بِهِۦ ﴾ فأنشأ لكم بالماء ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ أي بالماء ﴿ جَنَّـٰتٍ ﴾ فليست جنة واحدة، بل ﴿ جَنَّـٰتٍ ﴾ لتفيد التعدد والكثرة.

ثم خص بالتسمية والتعيين نوعين من الثمار ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ ﴾ وذلك لعظيم نفعها. مع لفت النظر إلى هيئة خلقتها وشكلها، واختلافها تمام الاختلاف، فأشجار النخيل باسقات، بطولها وارتفاعها، بينما أشجار العنب آخذة في الامتداد على الأرض، فلا ساق ولا قوائم لها، فهو متمدد على ما يُصنَع له من العريش، فإنها مخلوقين متغايرين نافعين، ومختلفتين في شكلها اختلافاً متباعداً في التكوين والصورة والهيئة، كما أن ثمرتها مختلفتان في طعمها، وشكلها، ولونها، وطريقة تخزينها، ليزيد التأمل والتفكر في بديع خلق الخالق جَلَّ جلاله. وكريم عطائه.

ثم يذكر سبحانه وتعالى بقية الأنواع على وجه الإجمال ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ فلكم أيها الناس لا لغيركم فواكه أخرى في هذه البساتين، وإن كان غيركم في الانتفاع منها هو تبع لكم. وهي ﴿كَثِيرَةٌ﴾ في أنواعها، وأحجامها، وتنوع مذاقها، فهي متعددة في كثرتها وتنوعها. وسماها الله تبارك وتعالى ﴿فَوَٰكِهُ﴾ لما لها من تنوع اللذة التي يتلذذ بها الآكل منها. فهو بيان في غاية الإبداع لفظاً وغاية وكرماً وجوداً وعناية.

ثم عطف الله سبحانه شجرة الزينون على ما سبق، بإفرادها وتعيينها مع تخصيصها بالذكر، وهي الشجرة التي اشتهرت بها بلاد الشام، وخص بها الوادي الذي كلم الله تعالى فيه نبيه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، فعطف الخاص على العام ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ فاستغنى البيان بنعتها عن تسميتها، وذلك بذكر المكان الذي اشتهر بها، وبذكر منافعها. وفي هذا شد الانتباه لها بأسلوب السياق، وكذلك لمنافعها العظيمة. فبهذا الماء الذي أنزلناه لكم من السماء، قد أنبتنا لكم به جنات من النخيل والأعناب، والفاكهة الكثيرة، وكذلك ﴿وَشَجَرَةً﴾ وهي شجرة الزيتون التي خص بذكرها الوادي الذي كلم الله تعالى فيه نبيه ورسوله موسى عليه السلام ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ ومن بديع البيان أن ذكر اسم المكان بالجبل المبارك ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ الذي كلم الله تعالى فيه كليمه موسى عليه السلام. وفي هذا تنويه بهذا المكان الذي يحكي طرفاً من قصة موسى وقومه من بني إسرائيل. وفي تخصيص شجرة الزيتون بالذكر ما يدل على خصوصية فضلها، بما فيها من البركة في ثمرتها، وزيتها، وغذائها. وفي ذلك مدح وثناء على هذه الشجرة التي اختلف حتى طعمها عن ثمار النخيل والأعناب ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ فذكر منتوجها المستخرج منها، وهو زيت الزيتون ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ والدهن هو: زيت الزيتون، الذي يتدهن به الإنسان، وكذلك من منافعها أنها إداماً لهم ﴿وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ أي: إداماً للآكلين، بما يخلطه بالخبز من الدهن، فيصبح إداماً لآكل الخبز به. أو أكل حباتها مع الخبز. مما يدل على فضل هذه الشجرة، وما فيها من البركة، وتعدد منافعها. وتنبيه العباد لها.

مما يدل على فضل الله تعالى، ورحمته بالعباد، إلى درجة لفت الانتباه للأكثر نفعاً وفائدة. مما يبين تقدير الله تعالى، وأنه يخص ما يشاء بما يشاء من زيادة الفضل والنفع والبركة، ليعلم العباد أن الأمر كله لله عَزَّ وجل في كل أمر وشأن. فهو الذي رفع منافع من يشاء من الأشجار والثمار، كما يرفع درجات من يشاء من العباد، ليعلم الإنسان أن الأمر والتدبير له وحده لا شريك له. حتى من رفعه الله تعالى على غيره من الناس،

فإن الرفع لا يعود للمرفوع، بل الذي رفعه هو الله سبحانه وتعالى، فلا يظن أنه هو الذي خص نفسه بالرفع، وبالتالي عليه بأن لا يتعالى على غيره، فلو شاء لرفع غيره عليه، وأنزله مكان من هو أخفض منه.

ثم ينتقل الاستدلال من آية نزول الماء من السماء وإنبات الأرض بالزروع والفواكه خاصة، لينتقل إلى آية خلق الأنعام العظيمة التي يستطيبها الإنسان، وينتفع بها غاية الانتفاع، وهي: الإبل والبقر، والضأن والماعز، وما يحتوي ألبانها عليه من المنافع، وبما يمر به من التكوين في داخلها، والذي يعتبر آيات ودروس للإنسان إذا تدبرها، خاصة فيما يمر به من مراحل تكوينه وإنتاجه، من بين فرث ودم، ليخرج لبناً صافياً. بما يدل على عظيم إبداع الله تعالى في خلقه، وتفضله على العباد بما أنعم عليهم من عظيم الخلق والعطاء والإيجاد. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فتلفت الآية الكريمة الانتباه والتفكير العميق إلى اللبن الذي يُخرجه اللهُ تعالى من بطون الأنعام، بعد أن يمر بعدد من المراحل. ابتداء من المنشأ؛ الذي هو طعامها، ثم يتحول هذا الطعام من مكونه الأصلي إلى عدد من المنتجات، فمنه ما يكون دماً، فيسيل في العروق، ومنه ما هو غذاء لجسمها، فتتغذى به الأبدان، ومنه ما يبقى في معدتها، وهو الفرث. الذي يخرج روثاً مع أمعائها، ثم يتحول إلى فضلات، فينتفع به الناس في الحرث والزرع، ومن بين هذه الأصناف والمكونات من الدم والفرث يخرج لبناً، طعاماً لذيذاً، وهو اللبن. فيكون من ذلك العلف الذي تأكله الأنعام، ومن ذلك المسار المتعدد في جوفها يخرج لبناً خالصاً من كل شائبة، فلا دم فيه ولا فرث، ولا أذى، ولا رائحة كريهة، بل طعاماً لذيذاً. وقد تم البيان له بالسقيا، التي هي مباشرة الانتفاع باللبن ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ فمن هو الذي أخرج هذا الطعام اللذيذ من بين الدم والفرث، فيستسقي به جنس الإنسان عموماً؟ ومن الذي أخرجه من بين ذلك الدم والفرث الذي تأنف منه النفوس. فضلاً عن تحريم الدم؟ إنه مجال للتأمل، ليدرك الإنسان عظمة الخالق المبدع، الذي لا يعجزه شيء، وأنه المنعم على عباده، بما يستوجب عليهم طاعته، والسعي في رضاه.

وقد بدأت الآية الكريم بنون التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ التي تؤكد ما بعدها من الحقيقة ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ فقد تأكدت العبرة لكم من الأنعام عموماً. والعبرة هي: الآية والدلالة على قدرة خالقها سبحانه وتعالى، وحكمته في الخلق والتدبير، وعظيم خلقه، مع لطفه ورحمته في تسخيرها لكم. والمراد بذلك الاتعاظ بما فيها من الدلائل الموصلة إلى العلم، حيث تنقل المعتبِر من الجهل إلى العلم بعظمة المخلوق الدالة على عظيم خالقها جَلَّ في علاه، كما تفيد ترسيخ العلم لدى المتعلم، فتوصل المعتبِر إلى اليقين، الذي ينتفي معه الشك أو الجهل الكلي، أو الجهل المركب، ويحل محله اليقين بأن الله تعالى هو الذي خلق ودبَّر هذا الكون العظيم، وهو الذي لا يستحق إفراده بالعبادة إلا هو جَلَّ جلاله. ثم يخص البيان الكريم شأن اللبن من بين تلك المذكورات من الدم والفرث، وذلك لما فيه من العبر، التي يتفاعل الذهن معها تعجباً من الصنع والخلق والمنتوج الذي يستطعمه

ويتغذى به، من بين أخلاط تكرهها النفوس، ليصل إلى التقرير بأن الذي أبدع هذا هو الله الواحد الأحد. ولا يستحق العبادة إلا هو جَلَّ جلاله.

فالعبرة أن الله تعالى يسقيكم منها اللبن، فنسب سبحانه وتعالى السقيا له عَزَّ وجل امتناناً عليكم به ﴿ نُّسْقِيكُم ﴾ فليست هي إلا مخلوق مطيع، فليس لها القدرة على ذلك، بأن تُخرج من جوفها ما تشربون من اللبن، لولا أن الله تعالى منحها تلك القدرة، وتلك الكيفية، وأن السقيا تتم من خلال ما في بطون تلك الأنعام ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ فإنها لفتت انتباه عظيمة، نحو النعمة التي يفوت اعتبار الإنسان منها، والتي تدل على امتنان الله تعالى على العباد بهذا الغذاء، وبهذا المنشأ والتكوين والخلق العظيم، والتدبير المذهل لمن تأمله وتدبره. مما يفيد أهمية التعليم وتحريك العقول بالتأمل والتفكر، بقصد الاعتبار والاهتداء، فإن شأنها عظيم في التعليم والتوجيه والتربية.

ثم يمتد البيان الكريم إلى ما يخص عموم المنافع ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ فليست منفعة واحدة، بل منافع عديدة﴿ مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ فوردت كلمة ﴿ مَنَٰفِعُ ﴾ بصيغة الجمع التي تفيد التنوع في المنافع، كما وُصِفَت المنافع بالكثرة، لتدل على كثرة تنوع فوائد المنافع. فكلمة ﴿ كَثِيرَةٌ ﴾ مؤكدة ومبينة. فمنها التجارة، ومنها التوالد والتكاثر، ومنها استخدام جلودها، ومنها أكل لحمها وبيعه، ومنها الانتفاع بشعرها، ومنها الانتفاع بجلودها، وغير ذلك.

ثم خص تبارك وتعالى من بين تلك المنافع الأكل منها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ففي تخصيص ذلك إظهار وإبراز لنعمة الأكل منها. وهو كذلك بيان لمواطن العبرة، وما فيها من أوجه النعمة المتعاظمة، التي تدل على عظيم تدبيره عَزَّ وجل، وكريم عطائه وامتنانه على عباده بما خلق وسخر جَلَّ شأنه. ثم يلفت سبحانه وتعالى الانتباه إلى نعمة استخدام ما يصلح منها للركوب وحمل الأحمال المتنوعة عليها، كالجمال من الأنعام، مع إضافة السفن في البحار إليها ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ للعلاقة الكبيرة، والمشابهة في حمل الأثقال، والامتعة والحاجات، والتنقل في الأسفار والتجارة في أرجاء الأرض.

وقد غَيَّب سبحانه وتعالى ذكر الفاعل، وهي القوة الحاملة، التي تحملهم على ظهور المحمولات من الأنعام في البر، والسفن في البحر، فورد السياق للحمل بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ فَغَيَّب سبحانه وتعالى الفاعل الذي يمثل القوة التي تحملهم على ظهور الْفُلْكِ في البحر، والحامل لهم على ظهور ما يحملهم في البر من فئة الأنعام. لتشمل بذلك قوة السبب، وقوة المسبب له، فقوة المسبب هي قوة الله تعالى،

وإرادته، وتسخيره وتدبيره، وعونه وتوفيقه عَزَّ وجل. وأما قوة السبب، وهي الأسباب، التي تكون من العبد نفسه، وهو الراكب. فتستوعب جميع أنواع القوة من الأسباب، سواء الأسباب التي تكون من الناس المحمولين عليها، بما أعطاهم الله تعالى من القدرات الجسمية، والعقلية، أو قوة التسخير والتطويع، أو قوة الحمل والرفع للمحمول عليها، وبالتالي تستوعب المستجدات من أسباب قوة الاقتدار.

وإن في هذا التسخير لآية ودلالة على أنه سبحانه وتعالى هو المسخر، وهو الذي لا يُعْبَد غيره ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ فإن مَن تأمل التوافق بين الأنعام التي تمشي على الأرض، وبين السفن التي تعبر عباب البحار؛ لوجد غزارة من الدلالات والمعاني والمقاصد، سواء من حيث اتفاقها في حمل الإنسان والمتاع والتنقل، أو من حيث خصوصية مسار كل منهما، براً وبحراً، فهذا خاص بالبر، وهذا خاص بالبحر. فإن في ذلك آية لمن تعقل وتفكر وتدبر على أن هاتين الوسيلتين مع اختلاف هيئتهما وتكوينهما إلا أنهما يتوافقان في حمل الإنسان وحمل ما يريد حمله ونقله من مكان لآخر، سواء من الامتعة أو من التجارة وغيرها، فإن في ذلك محط ومحطة للتأمل والتفكر في أمور عديدة، والتي منها: التدبر والتأمل في تدبير الله تعالى، وعظيم إنعامه عليكم، وعظمة تدبير خلق الله عَزَّ وجل. وكلما أكثر الإنسان التأمل ازداد به يقيناً على عظمة الله تعالى، ووجوب طاعته وتوحيده، وحمده وشكره، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وازداد بذلك علماً بأن الله تعالى واحد أحد، فرد صمد، قد أنعم على عباده بنعم لا تُعد وإحسان لا يُحَدّ. وأن هذه القدرة العظيمة دليل على القدرة على البعث، بما يستوجب الإيمان بالغيب كله.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى فضائل إنعامه كرمه من إنزال الإمطار، والإنبات، ونعمة الأنعام، وما سخر منها للركوب في البر وفي البحر، ينتقل البيان إلى قصة رسوله نوح عليه الصلاة والسلام الذي أول من بنى السفن، بهداية الله تعالى له، وتعليمه كيف يبنيها. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وبدأ البيان الكريم بأداة التوكيد والتحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ كما بدأ بها مطلع هذه السورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وبدأ بها آيات أطوار خلق الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ ثم بدأ بها سبحانه وتعالى آيات بيان خلق السماوات، بحرف التوكيد والتحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ثم يفتتح بها سبحانه وتعالى خبر ارساله نوح عليه الصلاة والسلام إلى قومه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ والتي أفادت تأكيد ما بعده تأكيداً متحققاً.

فيقرر سبحانه وتعالى أن الإرسال منه وحده لا شريك له ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فيقرر بأداة التوكيد، ولام القسم أنه سبحانه وتعالى أرسل رسوله نوح إلى قومه، يأمرهم بعبادة ربهم جَلَّ جلاله، وأن يتقوه، وأن يؤمنوا بأنه ليس هناك إله غيره.

وقد نسب سبحانه وتعالى الإرسال له عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ مما يفيد ويدل على عنايته جَلَّ جلاله بعباده، وعنايته بتوحيده، وعبادته، وتصحيح مفاهيم الناس عن العبادة، وإبطال الشرك ونبذه. كما عَيَّنَ تبارك وتعالى المُرْسَل إليهم تحديداً، بأنهم قومه الذي يعيش بينهم، ويعرفونه حق المعرفة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وليفيد كذلك: وكما أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه فقد أرسلنا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قومه. فيعزز ويقوي بهذه المماثلة أن مِنْ سُنَنِ الله تعالى أنه يُرسل الرسول بالاصطفاء من قومه، فلماذا الإنكار على نبيكم ورسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. فالذي أرسل نوحاً إلى قومه هو الذي أرسل محمد عليهما الصلاة والسلام إلى قومه، فلما التكذيب والإنكار؟ كما أن في هذا حجة وبرهان على بشرية المرسلين، بأنهم بشر من أقوامهم.

ثم يبين تبارك وتعالى مضمون دعوة نوح عليه السلام، بأنها بمثل ما دعاكم إليه رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ فإنه أمرهم بتوحيد الله تعالى، بأن لا يشركوا به شيئاً ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يا قومي اصرفوا عبادتكم لله وحده لا شريك له. وقد بين وأكد سبحانه

وتعالى أنه مرسل إلى قومه عليه السلام ﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فهو منهم كما محمد صلى الله عليه وسلم منكم. وقد أظهر الله عَزَّ وجل مخاطبة نوح إلى قومه بلفظ الانتساب إليهم، بأنه واحد منهم، فنسب نفسه إليهم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ وهذا من كمال اللطف معهم، وكذلك يؤكد فيه على معرفتكم بحقيقتي وسيرتي فيكم.

فبدأ نوح عليه الصلاة والسلام خطابه لهم بلطف الخطاب ﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ مما يبين ويوضح أهمية اللطف في تخاطب الداعية مع غيره. فخاطبهم بما يفيد انتسابه إليهم، مما يفيد ويدل على الحرص الشديد عليهم، كما هو حرص نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم عليكم، فبدأهم بتخصيص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ توجهوا بعبادتكم إلى ربكم وحده لا شريك له ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ فلا تعبدوا غيره، ووحدوه؛ ولا تشركوا معه غيره ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ ليس لكم إله تعبدونه غيره عَزَّ وجل، فليس في الوجود إله يُعْبَد غيره تبارك وتعالى. وفي هذا نفي قاطع لكل معبود من دونه عَزَّ وجل. ثم يرغبهم فيما أوضحه وبينه، وهو أهمية التقوى، التي تحمل الخوف والخشية من العقاب إن لم يستجيبوا لما أمرهم به ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فإنه سؤال يستثير فيهم الخوف من عقوبة الله تعالى إن استمروا على ما هم عليه من الشرك.

ومن جميل التوجيه، وكريم العناية الربانية بعباده أن ذكرهم في مطلع هذه السورة بمجد وفلاح المؤمنين عند ربهم، وصفاتهم الحميدة، وما أعده لهم من جنة الفردوس. ثم بين لهم عظمته في أطوار ومراحل تكوينهم، ومذكراً لهم بالعاقبة والخاتمة للدنيا التي تنتهي بالموت والفناء لكل أحد من العباد، ثم حصول البعث والحساب والجزاء. ثم إعادة الموعظة لهم بما خلق من سبع طرائق، وهي السماوات السبع، وأنه عليم بهم. ثم وعظهم بما أنعم من الخير على جنس الإنسان، من إنزال الماء، وإسكانه الأرض، وما أنشأ به من الجنات، والفواكه، وعلى رأسها النخيل والأعناب، والزيتون. ثم يذكرهم بقصة رسوله نوح عليه الصلاة والسلام، التي تثبت لهم أنه كان رسولاً إلى قومه، كما هو محمد رسول إليكم، وإلى الناس أجمعين. فقد كان تدرجاً بديعاً، وموعظة واعظة بأسلوب متلاحق، بما يشد الذهن، ويفتح العقل بالأدلة والبراهين الحسية من أفضاله سبحانه وتعالى التي يعيشونها، وبيان عظيم قدرته عَزَّ وجل في تدبير ملكوته سبحانه وتعالى.

ثم تزداد الموعظة بالمزيد من البيان عن شأن نوح عليه السلام وقومه، وما دار بينهم ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ فبعد مخاطبة نوح عليه السلام لقومه بتوحيد الله تعالى، يبين تبارك

وتعالى ما ردوا به عليه ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ والملأ: الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم[١] وهم الأشراف والسادة، والرجال ليس معهم النساء[٢] فقال أشراف قوم نوح الذين كفروا به، وأنكروا ما دعاهم إليه ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فقد بدأ هؤلاء الملأ من قومه بالطعن في ذات نوح عليه السلام؛ من حيث بشريته ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فإن نوح ليس له مزية عنكم، فهو بشر مثل ما أنكم بشر، بما يفيد: كيف تكون له ميزة الرسالة عليكم، وهو مثلكم. فجعلوا جنس البشرية مانع لأن يكون من البشر رسولاً نبياً. فبعدم وجود الفرق بينكم وبينه، فإن الأمر والشأن يستلزم بأن لا يكون له فضل التميز بالرسالة والنصح لكم. فمن أجل صد الناس عن نبي الله نوح عليه السلام أوهموا اتباعهم وغيرهم من الناس بالمغالطات التي تصرفهم عن الاستماع إليه، فَصَبُّوا مغالطتهم للحقيقة على قصر وحصر المماثلة في الجنس البشري، بأنها نافية لما يقوله لهم من أنه رسول الله إليهم. وبالتالي نفوا عنه إمكانية الاصطفاء له من الله تبارك وتعالى، ليكون رسولاً نبياً. وبالتالي ذهبوا إلى مقصد التفاضل ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ فهو يريد أن يتميز ويعلو عليكم، فيسودكم، ويرأسكم، وتكونون تابعين له، ومنقادين لأمره. فدخلوا في نيته، وانحرفوا بها إلى محبته بأن يكون سيداً عليكم. وبهذا التصوير المنحرف، يسعون إلى صد غيرهم عن نوح عليه الصلاة والسلام، الذي مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم اتجهوا من تكذيب نوح عليه السلام إلى تكذيب منهجية الدعوة، وطريقة إيصالها، وذلك لصرف الناس من خلال الدخول في مراد الله تعالى، وسنته في إرسال الرُّسُل، وفي المنهج الذي يجب أن يكون فيما لوا أراد الله تعالى منكم الذي ذكره نوح من توحيده سبحانه وتعالى، فعللوا ذلك بعلل وأسباب، فأولها ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ فلوا أراد الله تعالى منكم ما قاله نوح لأرسل وأنزل من السماء ملائكة من عنده، فيأمرون بما يريده الله تعالى، ولم يرسل بشراً مثلنا.

وورد التعبير بالإنزال ﴿ لَأَنزَلَ ﴾ وذلك لعلو الملائكة. ثم تسلسلوا إلى ربط ما سبق من النفي بنفي آخر، لتكون العلة والسبب الثاني في تكذيب نوح ورسالته، عليه الصلاة والسلام ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ لم نسمع فيما سبق من الأمم التي نحن نمثل سلالتهم هذا البلاغ. فلم يبلغنا عن طريق تناقل الأخبار أنه حصل هذا فيمن سبقنا من آبائنا. فجعلوا عدم علمهم حجة إبطال وإفساد لنبوة نوح عليه السلام،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦١/١٠)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١١١/٢)

ولِمَا جاءهم به. مما يبين قوة المجادلة. ولم ينظروا إلى حجج نوح عليه السلام، والبراهين التي جاءهم بها، والتي تثبت أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ثم عادوا إلى ذات نوح عليه السلام، بالطعن فيه، وافتراء الشُّبَه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فاتهموه بالجنون، الذي هو ضد العقل، وضد العاقل المدرك. ثم يناصحون أنفسهم وغيرهم من الاتباع ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فانتظروا، وترقبوا، وتريثوا به إلى الوقت الذي ينكشف ويتبين لكم به حاله عندما يفوق من جنونه، فيترك ما يدعوا إليه، أو يموت، فتستريحون منه ومما يدعو إليه. وهي تهمة تتناقض مع اتهامه بأنه يريد أن يتفضل ويتميز عليكم. فكيف يكون مجنوناً وهم يتهمونه بإرادة التعالي، فالمجنون في غفلة عن هذا. فهي تهمة لا تقف ولا تصمد أمام الحق، ثم إن الجنون تظهر حقائقه للناس على ذات المجنون. ولكن في ذلك دلالة على قوة كفرهم إلى درجة ذهولهم في الوصف. وبالتالي لا يأخذكم شدة كفركم وحسدكم يا قوم محمد صلى الله عليه وسلم عما جاءكم به من الحق. فاعتبروا بغيركم.

فلما رأى نوح منهم الصدود والافتراء عليه، وقوة تكذيبهم، وافترائهم الكذب عليه، وتماديهم في الكفر استعان واستنصر بربه جَلَّ جلاله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فاستغاث واستعان بربه عَزَّ وجل ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ انصرني يا الله عليهم بسبب تكذيبهم بدعوتي لهم، وعدم قبولهم الحق. فحصر علة وسبب دعائه واستغاثته بربه في تكذيبهم، ولم يشير إلى ما حصل منهم في شخصه وذاته من التهم له بالباطل. فلم يتجاوز غير الذي بُعِث من أجله، مما يُعَلِّم المسلمَ منهجية الصبر، والعفو عما يخص الذات، والترفع عنه ما أمكن، والاهتمام بما هو أهم. فيوجه الله تعالى نبيه نوح عليه الصلاة والسلام بالاستعداد لما سيحدث، والأخذ بأسباب النجاة، بأن يصنع السفينة التي سيركبها، ومن آمن معه، وهم قليل، بالرغم من أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ فأوحى إليه عَزَّ وجل بأسباب ومنهج النجاة، وهي صناعة السفينة وفق ما يعلمه الله تعالى، وبتدبير وحماية منه جَلَّ جلاله.

ومن دقائق البيان أن أوضح سبحانه تعالى لعباده طريقة تعليمه لرسوله نوح عليه الصلاة والسلام صناعة السفينة، بأنه كان عن طريق الوحي ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ ﴾ بصناعة السفينة، التي ينجيه الله تعالى ومن معه بها من الغرق الذي سيصيب القوم الكافرين. والوحي هو: أن يُرسل الله تعالى له مَلَك من السماء، فيخبره بما أمره الله تعالى به. والله تعالى قادر على أن ينجيه من غير سفينة، ولكن يُمْضِي الله تعالى سننه، من الأخذ بالأسباب، ومنها أسباب النجاة، ليتبين أن منهج الله تعالى في عباده وملكوته قائم وفق النواميس

والقوانين التي سَنَّها الله تعالى من الأسباب. فلا يطلب المسلم النجاة من غير الأخذ بأسبابها، ولا يطلب الرزق من غير الأخذ بأسبابه.

ثم إن صُنع الفلك كان بأمرين مهمين: الأول: ﴿ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ أي بمرأى من الله تعالى وعلمه وعنايته وحفظه. والأمر الثاني: ﴿ وَوَحۡيِنَا ﴾ أي تعليمنا إياك كيف تصنعها. وهذه من دقة عناية الله تعالى برسوله عليه الصلاة والسلام، وأنه هو الهادي إلى مخترعات الإنسان عموماً، ومنها مخترعات اليوم، وما يحدث في المستقبل، من تهيئة سبل تعلمها، والهداية إلى أسباب صناعتها. فكل خير يُنسب إلى الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى رسوله نوح عليه السلام بما يتهيأ به للركوب في السفينة بعد تمام بنائها. فأولاً: يأتيك الأمر من الله تعالى، وهو الأمر الخاص بعذابهم ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ فحين يصدر أمرنا بالعذاب لهؤلاء المكذبين بك، وإهلاكهم. فإن هناك علامة حددها عَزَّ وجل لنوح عليه السلام، وهي: فوران التنور ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ أي: إذا رأيت الماء قد ارتفع على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا قول جمهور السلف، وعلماء الخلف(١) وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال: أن التنور هو الذي يخبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يُوجَّه إلا إلى الأغلب الأشهر... وذلك أن جَلَّ ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به. قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه الذي واعدنا نوح أن نعذبهم به، وفار التنور الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا بيننا وبينه، لهلاك قومه(٢) وهي علامة يعلم نوح بها قرب ما وَعَدَ اللهُ تعالى به من العذاب. والذي يظهر من الأقوال أن الذي ذكره الإمام الطبري رحمه الله تعالى ورجحه هو عند ظهور علامة بدء الحمل من كل زوجين اثنين في السفينة، واجتماع المؤمنين لاعتلاء السفينة، وابتداء ركوبهم لها، لأنه الزمن الذي يمكن أن تكون فيها حركة الناس ممكنة، حيث نادى نوح ابنه كما سيأتي لاحقاً، ويكون قول ابن كثير عندما هاجت المياه على الأرض، فيستعصي على الكافرين الحركة، والخروج عند معاينة بداية حلول الغرق.

فعند ظهور هذه العلامة التي هي فوران التنور يُوَجِّهُ اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ فأدخِل في السفينة من جميع أنواع المخلوقات زوجين اثنين.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦١/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٦/١٢-٤٠٧)

فأمر جَلَّ جله نوح بأن يُدخل، وهو معنى ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ فأدخِل في السفينة من جميع أنواع المخلوقات زوجين اثنين. والزوج هو الشيء الذي يكون له ثانياً، رجل وامرأة، ذكر وأنثى، ويدخل في ذلك الحيوان والنبات، وهكذا. وهي الحالة التي يمكن ويستطيع أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، وجملة ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ تفيد تعميم الحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، دون استثناء. والله تعالى قادر أن يُبقي من المخلوقات ما يشاء، ولكن الله تعالى يُحدث الأمور ويجعلها وفق السنن التي سَنَّها سبحانه وتعالى في الحياة، للبقاء والتكاثر والتناسل، ليعلم ويتعلم الإنسان أهمية العمل وفق سنن الله تعالى، فيطلب الخير بالسعي نحوه، ويدفع الشر بأسباب دفعه، وأن يجمع بين الدعاء وبين الأخذ بالأسباب.

ويأمر الله تعالى نوحاً عليه السلام أن يحمل أهله معه ومن آمن ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ﴾ وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن. قال الضحاك: وهم امرأته، وابنه كنعان[١] وفي استثناء من سبق عليه القول بالعذاب إفادة الحصر والقصر لهم بالمنع من دخول السفينة، بما يفيد أن يركب معهم من آمن، كما ورد في سورة هود، وهو قوله تعالى ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ واحمل كذلك من آمن من غير أهلك، ثم وصفهم سبحانه وتعالى من حيث العدد ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ فمع طول مدة مكثه بين قومه وهو يدعوهم إلى الايمان، إلا أنه لم يؤمن منهم إلا القليل، فقد لبث فيهم كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ مما يفيد: أنه ليس على الداعي إلى الله تعالى إلا البلاغ، والأخذ بالأسباب، وإنما التوفيق بيد الله تعالى، وأن الأمور ليست بالكثرة المادية، ولا بالمدة الزمنية. وكذلك ليست بالحرص، فقد كان من حرص نوح على إسلام قومه أنه كان يدعوهم ليلاً ونهارا، وسرا وجهارا. وفي هذا فوائد عديدة لمن تأملها.

ونهى الله تعالى نبيه نوح عليه الصلاة والسلام عن مخاطبته في الذين كفروا ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ نقل ابن الجوزي رحمه الله دلالتان في معناهما: الأولى: لا تسألني الصفح عنهم، والثانية: لا تخاطبني في إمهالهم. وإنما نُهِي عَنِ الخطاب في ذلك، صيانة له عن سؤال لا يُجاب فيه له[٢]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٨٦)

(٢) المرجع السابق (٤/٨٢)

ويفهم من هذا أن دعاء نوح على قومه كما في سورة نوح ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أنه كان بعد نهي الله تعالى عن مخاطبته في شأنهم، فعرف أنهم لن يؤمنوا، وبالتالي فلا نجاة لهم، ولا سبيل لمزيد دعوتهم، وذلك لعلم الله تعالى بأنهم لن يؤمنوا، فدعا عليهم بذلك الدعاء. ثم أكد الله تعالى بأن عذابهم سيكون بإغراقهم في الماء ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ وفي هذا بيان لنوع العذاب الذي سيصيبهم به سبحانه وتعالى، وكذلك فيه بيان لسبب بناء السفينة. وقد أكد الله تعالى غرقهم بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُم ﴾ أي: لا نجاة لهم، ولا عدول عن ذلك.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى رسوله نوح عليه الصلاة والسلام إلى القول الذي يقوله بعد أن يستقر ومن معه في السفينة ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإذا اعتدلت واستويت، وأصبحت مستقراً ومن معك من المؤمنين على السفينة ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: احمد الله تعالى، واشكره على تخليصه لكم من القوم الظالمين، فنجاكم ربكم بفضل منه سبحانه وتعالى. وفي قوله عزَّ وجل ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ ﴾ ما يفيد الاستقرار والتمكن، وهو يمثل الشعور بالنجاة، وأن يكون هذا الاستواء حاصل منك ومن الذين معك من أتباعك المؤمنين ﴿ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ ﴾ ثم عَيَّنَ سبحانه وتعالى مكان الاستواء ﴿ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ بما يفيد أن الله تعالى جعل الفلك مستقر النجاة من الغرق الذي سيغرق به القوم الظالمين. وفي الأمر بالحمد ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تقرير واعتراف بنعمة المنعم وفضله سبحانه وتعالى، ثم عَيَّن جَلَّ في علاه علة الحمد وسببه ﴿ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين من ظلم قومه كانت نعمة جليلة عظيمة، وقد سماهم تبارك وتعالى ﴿ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لأن الشرك ظلم، ورفضهم دعوة نوح ظلم، وطعنهم في نوح، ورميه بالجنون ظلم، وتشويه دعوته، وصد الناس عنها ظلم. فورد الوصف مستوفي لأصناف مفردات ما كان منهم من العبث ومحاربة دين الله ورسوله عليه الصلاة والسلام. مما يدل على أهمية الحمد والشكر لله تعالى بعد كل نعمة ينالها العبد. وما أكثر تواردها وتعاقبها على الإنسان. مما يبين أهمية الإكثار من الحمد، فإن حياة الإنسان مغمورة بإنعام الله تعالى وفضله. الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربي ويرضى.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى عبده ورسوله نوح عليه الصلاة والسلام بهذا الدعاء العظيم ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ أي: قل يا ربي: أنزلني مكاناً وموضعاً أنزل فيه، يكون مباركاً بالسلامة والنجاة، ومليئاً بالخيرات ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ فأنت يا الله خير وأفضل من يُنزل من يشاء أفضل المنازل وأطيبها. وهذا الدعاء يشمل ويستوعب: استواءهم ونزولهم في السفينة، وكذلك حين نزولهم من السفينة، ويشمل المنزل البري الذي هم قادمون إليه، بعد خروجهم من السفينة، وكذلك المكان الذي ترسي السفينة فيه. فإن بناء سياق النص الكريم يستوعب جميع ذلك. وهذا من رحابة الدلالة للآية الكريمة، لتستوعب المراد بسياق واحد، من غير حاجة للتكرار والتعداد بالتفصيل. وهذه بلاغة إعجاز بيانية في كلام رب الأنام، سبحانه وتعالى.

ثم يذكر الله عَزَّ وجل عظيم ما اشتملت عليه قصة نبيه نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، وكيف أنه عَزَّ وجل نجَّا عبده ورسوله نوح عليه السلام، وأغرق القوم الظالمين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ فإن في ذلك الذي قصصناه ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ لدلالات وحجج وبراهين واضحات على عظيم قدرته عَزَّ وجل، وعنايته بالطائعين له، ومعاقبته للظالمين، وأن هذا القرآن العظيم نزل به الروح الأمين على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. إذ لا يعلم نبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام تلك التفاصيل عن قوم نوح. ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي: مختبرين العباد بإرسال المرسلين، ليظهر المطيع من العاصي. فنعاملهم معاملة المختبرين الفاحصين لهم، حتى لا يلوم الإنسان إلا نفسه، فكل إنسان بما اكتسب رهين. مما يدل على عدل الله تعالى ورحمته.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا
تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق كيف أهلك قوم نوح لما كذبوا رسولهم نوح عليه الصلاة والسلام ينتقل السياق إلى الإخبار بأن الله تعالى قد أخلفهم بغيرهم عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ فقد أنشأنا ﴿ قَرْنًا ﴾ أي: أمة غيرهم من الناس، ليخلفوهم من بعد أن أهلكناهم بالغرق. وكلمة ﴿ قَرْنًا ﴾ تعني: أمة. ولم يسمهم سبحانه وتعالى، بل أشار إليهم ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ لتأخذ صيغة العموم. وفي هذا شد انتباه الْمُخَاطَب نحو تعقب معرفة من هم المذكورين. وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود بهم في هذه الآية الكريمة هم قوم نبي الله هود عليه السلام. لأنه ذُكِر عذابهم بالصيحة في تمام الآيات ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهي الصاعقة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله تعالى بعدهم؛ هم قوم هود، لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح في غير هذا الموضع. ولقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وقيل هم ثمود لأنهم الذين أُهلِكُوا بالصيحة[١] وفي هذا دقة الأسلوب وعمقه التأثيري في النفوس، مع تحفيز الذهن واستثارته، وشد انتباه الْمُخَاطَب نحو تعقب معرفة من هم المذكورين.

ويزداد شد الانتباه في تتابع قصتهم من غير تسمية رسولهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فبينت الآية الكريمة إرسال الرسول عليهم من دون تعيين اسمه ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ وبينت أنه منهم ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ليس من غيرهم، بما يدل على أنهم يعرفونه تمام المعرفة، فيعرفون ما هو عليه من الخصال الحميدة. وفي هذا تنبيه وبيان بأن من سنة الله تعالى أنه يبعث الرسول من قومه، كما بعث نوح في قومه، وبالتالي فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث في قومه، وأنهم يعرفونه حق المعرفة التي ينتفي بها تكذيبه لما هو عليه من الخصال المحمودة التي يُثبتونها له، ويقرون له بها.

ثم أوضحت الآية الكريمة مضمون الرسالة وهدفها ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فالمطلوب منكم أن تتوجهوا بالعبادة إلى الله تعالى، الذي خلقكم. وهو نفس ما دعا نوح به قومه. ثم أورد لهم تأكيد إثبات حصر الألوهية في الله تعالى، وذلك بنفي كل معبود غير الله عَزَّ وجل ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ فليس لكم إله تتوجهون له بالعبادة غير الله تعالى. ثم وجَّهَ إليهم السؤال الذي يقرر به أن العاقل المتقي يدرك ذلك ويلتزمه ﴿ أَفَلَا

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٢/٣)

تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تخافون أن يصيبكم ما أصاب الذين من قبلكم. بما يفيد الوضوح بأن العبادة لا تصرف إلا لله وحده لا شريك، وهو أمر واضح وجلي، بحيث لا يستنكره العاقل. وهو كذلك سؤال استنكار، ويحمل دلالة الوجوب، وهو كذلك سؤال يحمل الوعيد، أفلا تتقون عقابه وبأسه. وهو مماثل لنفس ما سبق من نوح عليه السلام لقومه. وبالتالي فإن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في مضمونها قائمة على ما كان من رسالة نوح عليه الصلاة والسلام، وكذلك رسالة من بعده من المرسلين، وهي ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وبالتالي ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تخافون أن يصيبكم ما أصاب الذين من قبلكم. ومن فوائد تعميم السياق، ليشمل وحدة دعوة جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وكذلك يشمل جميع الأقوام السابقة بأنها كانت على هذا النهج من التكذيب لرسلهم، مما يوجب التعقل والتفكر، واتقاء ما أصابهم وحل بهم من العذاب.

ثم يذكر الله تعالى ما تداوله كبراء القوم؛ في شأن رسولهم، سواء كانوا قوم هود أو غيرهم ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فقال الكبراء هذا القول الذي بينته الآية الكريمة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ أي: أشرافهم وأعيانهم وقادتهم، وهم الْمُسَمَّون الملأ. مما يفيد تَزَعُّم هؤلاء الملأ محاربة نبيهم ورسولهم عليه الصلاة والسلام، من خلال صد الناس عنه. وقد وصفهم سبحانه وتعالى على حقيقتهم من الكفر ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ فصفة قومه من الملأ، الذين هم أعيانهم وكبراؤهم أنهم كفروا ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فإنهم كافرون، ناكرون لرسولهم؛ وناكرون لما جاءهم من الحق. بل ومن كفرهم استبعادهم للآخرة ﴿ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ فقد جحدوا أن المصير البشري يكون للآخرة، فجحدوا بذلك لقاء الله تعالى في الآخرة ﴿ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكذبوا بلقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجثماني[1] فكذبوا بلقاء الله تعالى في الآخرة. وبالتالي أنكروا البعث بعد الموت، ويتبعه الحساب والجزاء، وبالتالي جحدوا الجنة والنار. وقرروا أنه لا حياة بعد الموت. وبالتالي سيكون عملهم وفق دنياهم فقط.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٥/٣)

ثم يبين الله تعالى عظيم جحودهم في نكرانهم لدلائل إنعامه عليهم، وجحودهم لما أنعم به عليهم عَزَّ وجل.

فقد أنعم الله تبارك وتعالى عليهم في الرزق إلى درجة الترف ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو سعة الرزق، من المعايش، والمال، فبالرغم من توسعة الله تعالى عليهم في حياتهم الدنيا بالإنعام إلا أنهم كفروا، فلم يرشدوا بهذا الإنعام العظيم إلى أن الله تعالى هو المانح لما هم فيه من رغد العيش، ورفاهية الحياة، وسعة الرزق، وإنما بطروا بها. معللين تكذيبهم لرسولهم بعدد من العلل، من أجل أن يُقنِعُوا اتباعهم بالكفر والجحود. فبدأوا أولاً بشخص رسولهم عليه السلام: بأنه من جنسهم ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فموقع طعنهم في رسولهم كونه من جنسهم، فلم يكن مخلوقاً آخر. فسبحان الله، إذ لو كان مخلوقاً آخر من الملائكة لنفروا منه، واستغربوا صورته، ولما فهموه. ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وكأنهم يقولون بأي شيء تميز عنكم؟ ثم تمادوا واستطردوا في دعم هذا الاتجاه حتى يُقنعوا أنفسهم، ويضلوا غيرهم فيقولون عنه إنه ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فهو مساوي لكم في أكله، ومساوي لكم في شربه، وبالتالي ليس له صفة تجعله أفضل من غيره. فكيف تميز علينا، ليعلوا علينا بنصحه، ومن ثم اتباعنا له، واستسلامنا لقيادته. فاتجهوا لشخصه، ولم يتجهوا لآيات الله تعالى، من أجل تبرير كفرهم. مما يفيد أن الكذوب، والكافر، والجاحد يبحث عن مبررات يُقنع بها نفسه، ويقنع بها غيره من الاتباع، ويتجاهل الحقائق، ولا يلتفت إليها.

ثم انتقلوا بعد طعنهم في ذات وشخص رسولهم عليه الصلاة والسلام إلى تقرير النتيجة، التي يصرفوا بها أتباعهم عن الرسول وعن الهدى، والنتيجة التي قرروها، وهي ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فقال الملأ لأتباعهم: فإن أطعتم بشراً مثلكم في جنسه وبشريته، حيث يأكل مما تأكلون، ويشرب مما تشربون منه، فهو إذاً مثلكم؛ وطالما أنه مثلكم، فإنكم إن أطعتموه ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فإنكم حين اتباعكم له، تكونون ممن تحققت فيهم الخسارة البينة الواضحة. فأنتم مغبونون بترككم ما أنتم عليه، واتباعكم له من غير ميزة تميزه عليكم. فهي الخسارة المتحققة فيكم. فتكونون بذلك التصرف كمسلوبي العقل.

ثم اتجهوا إلى الطعن في مضمون رسالة رسولهم عليه الصلاة والسلام ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ فخاطبوهم بسؤال استنكاري لحقيقة ومضمون ما جاءهم به، بما يفيد التعجب من أمر وشأن أتباعهم إن أطاعوا واتبعوا هذا الرسول المبعوث إليهم عليه السلام. وليفيد الاستبعاد والتحذير من اتباع رسولهم. من أجل أن يصدوهم عن مجرد الاستماع؛ فضلاً عن الاتباع، أو محاورته، أو سؤال نبيهم.

معللين ذلك بقولهم: أيعقل أنكم إذا فارقتم الحياة الدنيا بموتكم، وتحولت أجسادكم إلى تراب، وأصبحت عظامكم جرداء مما كان يكسوها من اللحم، فأصبحت عظاماً نخرة، أبعد كل هذا يعدكم ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ أيعقل أنكم تُخرَجُون بعد هذه الحقائق التي تعرفونها عن مآل من يموت من البشر. وفي هذا الأسلوب إظهار الحرص من الملأ على الأتباع، لتأكيد طعنهم في رسولهم الذي أُرسِل إليهم. حتى تبقى الزعامة لهم في التوجيه والاستخدام، وتسخير الناس لمرادهم، بما يملكون مما أُترفوا فيه.

ثم يؤكد هؤلاء الملأ نصحهم بأسلوب آخر من الاستغراب والاستبعاد للبعث بعد الموت ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ التي تفيد الاستبعاد الشديد. أي: فإنه مستبعد ذلك الأمر، وبعيد جداً أن يتحقق ما يقول ويعدكم به من البعث بعد أن تتآكل أجسادكم، وتصبح تراباً. وجملة ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ تفيد الاستبعاد الشديد، والموغل في بعده إلى درجة الاستحالة. وتكرار كلمة ﴿هَيْهَاتَ ﴾ لإعطاء دلالة التأكيد على استحالة البعث، الذي تُوعدون به ﴿لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ فالإنكار واقع من أصله، فليس للبعث أساس. وهذا أسلوب عميق من الملأ في تدرجه، بناء على قياس خادع، فالذي خلق الإنسان ابتداء، قادر على إعادة ما خلق، والذي يُحي الأرض بعد موتها بالماء والزرع، قادر على إحياء من يموت من البشر، والذي يُغَيِّب الشمس والقمر، ثم يُظهرهُما قادر على الإحياء بعد الإماتة. والذي يُمرض ثم يُشفي حتى من شارف على الموت، قادر على إعادة من أماته. والذي خلق الحي من الميت، والميت من الحي قادر على إعادة ما خلق. فالذي أعاد خلق الشجر من النوى، قادر على إعادة من أماته من البشر. فالاستبعاد والقياس باطل، وفي غير محله. فسبحانه عَزَّ وجل يحي ويميت وهو على كل شيء قدير.

ثم يتجرأ هؤلاء الملأ من الكبراء والقادة بالحكم على قصر الحياة البشرية على الدنيا فقط، وكأنهم هم الذين خلقوا هذا الكون ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ فيقررون لأتباعهم أن الحياة الدنيا هي الحياة الواحدة والوحيدة التي يعيشها الإنسان فقط ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ من أجل أن يصرف هؤلاء الملأ غيرهم عن الحق، فافتروا العلل الكاذبة، بأن قرروا للناس بأنه لا حياة إلا الحياة الدنيا فقط، من أجل أن يُنكر الناس رسولهم الذي أرسل إليهم، ولا يتبعونه، فيتمادون في طغيانهم بناء على هذا المفهوم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ فهذا تقرير قصري بأن ليست هناك حياة أخرى غير هذه الحياة التي يعيشونها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ فنحن نموت كما مات آباؤنا، ويحيا الأبناء كما حيينا، أي: استمرار دورة الحياة البشرية.

وبالتالي نفوا البعث ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ فبناء على عدم الحياة الثانية بعد الأولى، فإنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة ولا نار. لتكون النتيجة هي: فعيشوا لدنياكم، واتركوا دعوة الذي يدَّعِي أنه رسول، لأنه يفتري الكذب على الله تعالى، بدليل الذي افتراه من البعث بعد الموت ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فاتجه هؤلاء القادة من كبرائهم وزعمائهم إلى الطعن في شخص رسولهم، كطريقة للطعن فيما جاء به. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: أن هذا الرجل يكذب على الله تعالى فيما جاءكم به من الرسالة والإخبار بالبعث بعد الموت، والإنذار لكم من الشرك، وما يجب عليكم من ترك معبوداتكم من الأصنام.

ثم يؤكدون الحث على عدم الإيمان والتصديق، من خلال التجمع والتكتل على تقرير الامتناع الجماعي ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فأورد الله تعالى حديثهم بالأسلوب الجماعي، أي: بأسلوب جميع الملأ وأتباعهم ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بأننا اتفقنا جميعاً على عدم تصديقه فيما جاء به، وعدم تصديق نبوته ورسالته. فقطعوا أمرهم بكفرهم. مما يبين أن على الإنسان أن يفكر ويتأمل، ولا ينساق وراء غيره من غير دليل ولا حجة ولا وبرهان. كما أن في هذا تنبيه وتحذير وتعليم لأهل مكة وغيرهم بأن يتأملوا حال من قبلهم، فيعتبروا. ليفيد أهمية الاعتبار بالغير على مستوى الأمم والأفراد، فإن في ذلك عبرة ودروس لا حصر لها، مما يبين أهمية دراسة تاريخ الأمم، للاعتبار والاتعاظ.

فبعد أن رأى رسولهم منهم الكفر البواح، وتظافرهم على ذلك، ومقاومتهم لرسولهم الذي أرسل إليهم، اتجه هذا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى طلب معونة الله تعالى، برفع أمرهم وأمره إليه عَزَّ وجل ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فطلب من الله تعالى أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم له. وليس بما حصل لشخصه منهم بالتهم الباطلة لذاته. فأجابه الله تعالى بقوله العظيم عَزَّ وجل ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ فيخبر الله تعالى بأنه بعد وقت قصير يحل عليهم العذاب الذي يجعلهم يندمون ويتأسفون على ما حصل منهم من التكذيب والعناد والكفر.

ومن دقائق البيان وقوة معناه ودلالته تقديم ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ على ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ لإفادة قلة الزمن المتبقي على عذابهم فإنه ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ بما يفيد سرعة الاستجابة لهذا الرسول عليه الصلاة والسلام، وشدة استحقاقهم للمباغتة بهذا العذاب. ثم ذكر التوقيت ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ الذي أفاد أنه لن يمض عليهم

الصبح وإلا وهم في حالة الحسرة، والندامة مما حل بهم من العذاب الذي لا يمكن لهم استدراك أمرهم وشأنهم عند حدوثه، بما يفيد سرعة بغته لهم. كما أكد سبحانه وقوع العذاب بلام القسم ونون التوكيد ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ ليفيد تأكيد وقوعه القريب. كما تفيد كلمة ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ الزمن، وهو الصبح، وتفيد كذلك: نجعلهم ونصيرهم نادمين. فيجتمع عليهم العذاب النفسي من الحسرة، مع العذاب البدني الذي يقع عليهم. وهذا من قوة العذاب وسرعته، وكذلك من غزارة البيان وقوة معانيه ودلالاته.

ثم يقول الله تعالى عن عذابهم ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فباستحقاقهم العذاب بكفرهم ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾ فأخذتهم صاعقة العذاب ورجفته التي هي الصيحة. وأن هذا الأخذ لهم، هو بالحق، فلم يكن ظلماً لهم، بل بما يستحقون، لكفرهم وعنادهم. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: صاح بهم جبريل صيحة، رجفت لها الأرض من تحتهم، فصاروا لشدتها غثاء ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾ قال أبو عبيدة: الغثاء: ما أشبه الزَّبَد، وما ارتفع على السيل، ونحو ذلك مما لا يُنتفع به في شيء[1] فأصبحوا هالكين خامدين، لا نفع فيهم، ولا يُنتفع بهم في شيء، بل أصبحوا عبء، لأن الغثاء هو كل شيء لا نفع فيه، بل ويحتاج إلى التخلص منه. وهو كناية عن تحول صورتهم التي كانت قبل ذلك مليئة بالحيوية والحركة، وتحصيل الانتفاع فيما بينهم، ومع غيرهم، وما كانوا فيه من نعمة التوالد والتكاثر، والإنتاج من الزراعة والتجارة، فإذا هم بالعذاب خامدين لا حركة ولا نفع منهم، بل أصبحوا جيف لا نفع فيها، فاستدعى الأمر التخلص منها. فإن وجودها صار ضرراً من تعفنها ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهلاكاً لهم، وبعداً لهم عن رحمة الله تعالى، لظلمهم بكفرهم الذي وقع منهم على أنفسهم، وظلمهم لرسولهم، وللحق الذي جاءهم به.

وقد ورد النص الكريم عاماً ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليشمل كل قوم كفروا بالله تعالى، فإنه سحقاً وهلاكاً، وبعداً لهم عن رحمة الله تعالى، فإنه بعد عميق للظالمين عن رحمة الله تعالى. فاعتبروا يا أيها الناس، وأيها الْمُخَاطَبُون. فتلك دروس وتعاليم وتحذير من الله تعالى لعباده، وإقامة الحجة والبرهان عليهم، فإنه إذا أراد شيئاً سبحانه وتعالى: قال له: كن. فيكون كما أمر عَزَّ وجل. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ومن الفوائد في جانب منهج التفسير أن المفسرين اتجهوا في تعين هؤلاء القوم الهالكين بأنهم قوم هود، بناء على الصيحة التي أخذتهم ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾ فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٣/٥)

بهم في هذه الآية الكريمة هم قوم نبي الله هود عليه السلام. لأنه ذكر عذابهم بالصيحة في تمام الآيات ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهي الصاعقة. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله تعالى بعدهم؛ هم قوم هود، لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح في غير هذا الموضع. ولقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وقيل هم ثمود لأنهم الذين أُهلِكوا بالصيحة[١] وفي هذا دقة استنتاج العلماء، وإمعانهم في ربط النصوص، والتتبع والمقارنة والقياس. لإدراك أن منهجية أهل التفسير قائمة على ركائز علمية مقننة ودقيقة.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بعد هلاك أولئك القوم الذين كذبوا رسولهم عليه الصلاة والسلام، فكانوا على مثل ما كان من قوم نوح، الذين كذبوا رسولهم نوح عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالى أوجد بعدهم أقواماً غيرهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ أوجدنا بعدهم أمماً غيرهم. ومن دقائق البيان أن كلمة **(قرن)** ذُكرت هنا جمع ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ بينما ورد ذكرها سابقاً بصيغة المفرد، وهو قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ لأنه قُصد بها الإفراد، وهم عاد قوم نبي الله هود عليه السلام، ولذلك ورد الرسول مفرداً كذلك. بينما هنا وردت بصيغة الجمع لتفيد الكثرة والتعدد المتتالي والمتعاقب ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ فأنشأنا بعد قوم نبي الله هود عليه السلام أمماً أخرى غيرهم، بما يفيد الكثرة والتعدد.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٢/٣)

ثم يخبر عَزَّ وجل عن كمال تدبيره ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ ﴾ فمن دقة قدرة الله تعالى وإحكامه في تدبيره لخلقه عَزَّ وجل، أن كل أمة لا تسبق أجلها الذي قدره الله تعالى لها، ولا تتأخر عنه أبداً، فلا تتجاوز الأجل المقرر من الله تعالى. فإن وقوع العذاب وفق تقدير دقيق. لعلمه بكل أمة، وبكل أحد قبل كونهم. فكل شيء له وقت وتقدير محدد، قد عَيَّنَهُ وحدده سبحانه وتعالى، بما يفيد دقة الكون، ودقة الآجال. وفي هذا تنبيه وموعظة لمن بُعِث فيهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فلا بد من بلوغ الأجل الذي وَقَّتَهُ لهم سبحانه وتعالى.

ومن عمق البيان أن لفظ ﴿أُمَّـةٍ ﴾ مؤنث، وسبقها الفعل ﴿تَسْـبِقُ ﴾ بصيغة التأنيث، وكلمة ﴿أَجَلَهَا ﴾ بصيغة التأنيث، لأن الأمة مؤنث، ولكن كلمة ﴿يَسْتَـْخِرُونَ ﴾ مذكر. قال الفراء رحمه الله تعالى: إنما قال ﴿أَجَلَهَا ﴾ لأن الأمة لفظها مؤنث، وإنما قال ﴿يَسْتَـْخِرُونَ ﴾ استخراجاً له على معنى الرجال[١] فهو مراعاة للمعنى، وليفيد أن المقصد من القرية هم أهل القرية عموماً، من الذكور والإناث، ويزداد بذلك دلالة التذكير باعتبار عنصر الرجال الذين هم أهل الحل والربط، ونساؤهم تبع لهم في الغالب. وهذه من دقائق الإعجاز البياني في سياق الآية الكريمة، وعظمة بنائها وبيانها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن تتابع رُسُلَه على عباده ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وبعد ذلك مما سبق بيانه عن إرسالنا نوح ثم ثمود، فإن حكمتنا اقتضت تتابع الرسل على تلك الأمم التي أنشأناها ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ فأرسلنا الرُسُل في تتابع وترادف، وتوالي، يتبع بعضهم بعضا ﴿تَتْرَا ﴾ أي: وأحداً تلو الآخر، بما يفيد عدم التواصل، بحيث يكون بين كل نبي ونبي زمناً محدداً من الله سبحانه وتعالى. قال الأصمعي رحمه الله تعالى: واترت كتبي عليه، أتبعت بعضها بعضا ! إلا أن بين كل واحد وبين الآخر مهلة[٢] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنها، أي: منقطعة متفاوتة، لأن بين كل نبيين دهراً طويلاً[٣] وهذا من وجه، ومن وجه آخر، قد يتزامن الإرسال حين اختلاف الأمم، كإبراهيم عليه الصلاة والسلام في بلاد الشام، في العراق، في بلاد الكلدانيين بالرافدين، وذهب إلى مكة لبناء البيت، بينما لوط عليه السلام الذي كان معاصراً لإبراهيم عليهما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٠/٤)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٤/١٢)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٣/٥)

الصلاة والسلام كان في أهل سدوم جهة الأردن. مما يفيد عناية الله تعالى بعباده، ورحمته بهم، بتتابع الرسل فيهم. لتعليم الناس أمور دينهم، وتصحيح انحراف عقيدتهم، وعباداتهم.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بحال الأمم مع رسولهم الذي يُرسل إليهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ فكل أمة يُرسَل إليها رسولها بالحجج والبراهين، فإنهم يواجهون رسولهم بالتكذيب والإنكار. فحالهم متشابه ومتوافق. وأضاف سبحانه وتعالى رسول كل أمة إليها ﴿رَّسُولُهَا﴾ ليفيد التخصيص لها، بأن رسولهم مرسل لهم خصيصاً، وبما يفيد أيضاً أنه منهم. وأفادت جملة ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ التوافق في نوع المقابلة، بأنه كان بالتكذيب ﴿كَذَّبُوهُ﴾ أي كان التوافق بينهم في تكذيب رسولهم، وفي الطعن فيه، وكذلك التوافق من حيث الزمن، بالمسارعة في التكذيب، فكانوا لهم بالإسراع والمبادرة في الإنكار والتكذيب ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ دون تمحيص وتفكير وتريث، مما يفيد أن سبب التكذيب هو تقديم أهواءهم التي لا يريدون غيرها. ومن دقائق البيان: الاكتفاء بلفظة المجيء عن ذكر مضمون الرسالة ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ لأن رسالة الرسل واحدة، وأن مجيء الرسول يفيد ويعني أنه يحمل رسالة ممن أرسله عَزَّ في علاه، وإلا لا يُسمَّى رسولاً لو لم يكن يحمل رسالة. وبالتالي أغنت دلالة لفظتي المجيء، والرسول عن كلمة مضمون الرسالة. وهذه من بلاغة البيان، وإعجاز ألفاظه في سياقه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه بناء على تكذيب الأمم التي تتابعت عليهم رُسُلُهم من ربهم تبارك وتعالى، فإنه كذلك قد تتابع عليهم العذاب ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ فتتابع عليهم العذاب من الله تعالى، بما يتوافق مع تتابع الرُّسُل، وتتابع التكذيب منهم. فكان هلاك بعضهم إثر بعض. وقد أبقى الله تعالى تناقل أحداثهم بين الأمم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ فبما كان منهم من التكذيب، وحصول العذاب بهم؛ فقد جعل الله تعالى شأنهم أحاديث يتناقلها الناس عبر الأجيال المتعاقبة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ فيتناقله الناس زمناً بعد الزمن، ومن جيل إلى جيل، في تواتر لا ينقطع. وبالتالي قد تواتر الناس في نقل ما كان منهم. ليكون عبرة وموعظة. وبالرغم من ذلك فإن الناس لا يعتبرون بما وصل إليهم من أخبار المكذبين.

ثم يبين تبارك وتعالى خسارة ومذمة الكفر وترك الإيمان ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فهلاكاً لقوم يتركون الإيمان ولا يقبلونه، ولا يُقْبِلُون عليه، فيكفرون بالحق والهدى والفوز بالآخرة ونعيمها. فيفيد قوله تعالى

﴿ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أنه قد تباعدوا مباعدة عظيمة وسحيقة عن رحمة الله تعالى، وعن حُسن الجزاء لمن لم يؤمن بما جاءه من الحق، ويعمل به. وبالتالي قد تهالك من كفر، بهلاك بعد هلاك، في الدنيا، وفي القبر، ويوم البعث والحساب، وحين الجزاء. وبما يفيد: قد تقارب من آمن من الخير وحُسن الجزاء والمآل. وفي هذا وعظ لمن كان في عهده صلى الله عليه وسلم، ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. فإنها موعظة مستمرة ما بقي القرآن الكريم، إلى أن تقوم الساعة.

ثم ساق الله سبحانه وتعالى جانباً من قصة موسى وهارون عليهما السلام ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾ ثم بعد تلك الأقوام المتعاقبة، التي أهلكناها بما كذبوا به المرسلين، وجعلناهم أحاديث للناس، يتناقلون أخبار تلك الأقوام المكذبة، فإنه قد أرسلنا موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالحجج والبراهين الواضحات البينات، وهي التسع الآيات: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات.

فإنا أرسلنا رسولنا موسى بن عمران وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بأدلتنا التي تُثبت أنهما رسول من عند الله سبحانه وتعالى، وهي التسع الآيات البينات كما وردت في سورة الإسراء ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ ﴾ فهي آيات تبهر العقول، كالعصا واليد، وكذلك زوده الله تعالى ﴿ وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾ وهي الحجج والبراهين البينة الواضحة التي تهزم وتغلب كل من يعارضها. وهي السلطة التي بها قد امتنع أن يلحقه الأذى من فرعون وأعوانه، فهي السلطة التي معهما فيتغلب الرسول بها عليهم. فمن ذلك سجود السحرة عندما التهمت عصا موسى حبالهم وعصيهم، كان ذلك الحدث سلطان واضح بأنه رسول من الله سبحانه وتعالى. فهي تشمل الوقائع التي يقهر بها الله تعالى المكذبين.

فأرسلنا موسى وأخاه هارون عليهما الصلاة والسلام ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴾ فأرسل الله تعالى موسى وأخاه هارون إلى فرعون، ملك مصر آنذاك، وإلى من معه من أشراف القوم وعليتهم الذين يحيطون بفرعون ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ والملأ هم: الكبراء والأشراف والأعيان والقادة من القوم. وفي التنصيص على فرعون وملئه باعتبار أنهم القادة والمؤثرون في القوم، فلوا آمنوا لاتبعهم بقية الناس، وفي التخصيص إظهار المؤثرين، البارزين. ولكنهم كانوا متعالين متكبرين ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾

فاستنكفوا وتعالت أنفسهم عن قبول الإيمان بالله تعالى، وعبادة ربهم تبارك وتعالى ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ متطاولون على غيرهم بالبغي عليهم، وإذلالهم، ففي أنفسهم استعلاء على غيرهم، مما جعلهم يستكبرون عن قبول الحق من نبي الله موسى، وأخاه هارون عليهما السلام.

ففي هذا تعليل لتكبرهم على الدين، واستكبارهم وأنفتهم من الانقياد لمن أرسلهم الله تعالى بالحجج والبراهين الواضحة البينة، وهم موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. مما يبين أثر الاستعلاء النفسي على تصرفات الإنسان مع غيره، بمحبة الاستعلاء عليهم والإذلال لغيرهم، واستنكافه عن أن ينقاد للحق الواضح بأدلته وحججه. مما يُوجب على الإنسان أن يتفقد نفسه من هذا الداء، والتخلي عنه، ومعالجته بالتواضع، وتعويد النفس على ذلك. مع الحذر من المتكبرين ومنهجهم وأساليبهم الخادعة.

ثم يبين تبارك وتعالى علة وسبب عدم الإيمان بأنه نتيجة الكبر ومشاعر الاستعلاء، فقال جَلَّ جلاله ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ فكيف نؤمن لهذين الرجلين وهما بشر مثلنا، لتتحول القيادة والريادة لهما في الوقت الذي قومهم يمتثلون لنا بالطاعة والانقياد. وبالتالي كيف نتخلى عما نحن فيه، وننقاد لهما؟ فأنكروا ونقضوا إمكانية ذلك بعلة المماثلة في جنس البشرية. وهو مماثل لِمَا كان من قوم نوح وثمود. فكان تعليلهم فيما بينهم لدواعي عدم الإيمان هو بشرية الرسولين، موسى وهارون عليهما السلام﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ وكذلك لسبب عبادة قوم موسى وهارون لفرعون بالطاعة والانقياد ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ كيف يمكن أن نؤمن بما جاء به موسى وهارون، فنصدق ونؤمن لمن كان مثلنا في الجنس البشري، فلا يتفوقان علينا في شيء من حيث الجنس البشري، بما يفيد: أنه حال إيماننا بهما، نكون قد سيدناهما علينا، ونقلنا السيادة لهما، وأصبح الأمر والنهي لهما، والطاعة لهم منا واجبة، فنكون قد أوجبناها على أنفسنا بعد أن كانت الطاعة واجبة لنا على غيرنا. والحال الأخرى التي تمنع من الإيمان لهما أن قومهما لنا طائعين ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ لأن المقصود بالعبادة هنا الطاعة والانقياد. قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: كل من دان لملك فهو عابد له[1]

وبالتالي كيف نفقد طاعة القوم، ونتنازل عنها لموسى وهارون. فهو سؤال استنكار واستبعاد، وتعجب من أن يكون منهم الإيمان، وهم بهذه الحالة من طاعة القوم لهم، مع بشرية موسى وهارون عليهما السلام أنكروا نبوتهما ورسلتهما والحجج والبراهين التي معهما. مما يفيد أن التحليل الخاطئ يتولد عنه فهم خاطئ، ثم يتلوه القرار الخطير الخاطئ. كما يفيد هذا أن السيادة والتطاول على الغير، والتمكن منها قد تكون السبب في صد الحق

(¹) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٤/٥)

ونبذه. فتجعل المرء يخسر الآخرة الباقية، مقابل مكاسب الدنيا الفانية. وفي هذا تحذير للإنسان من هذه المنطلقات، وأن عليه اتقاءها والتحرز منها، وألا يجعلها السبب في جنوحه عن الحق والهدى، سواء في دينه أو سائر معاملاته مع غيره، ومع نفسه. وفي هذا معالجة عامة، ومعالجة لكبراء أهل مكة، الذين رفضوا الحق من رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم بسبب الكبرياء والاستعلاء الذي كانوا فيه على غيرهم. مما يفيد أهمية ضرب الأمثال بالحقائق والوقائع التي تُعَلِّم الإنسان الحقيقة، وتوضحها له، وتبدد جهله، وتوقظه من سبات جهله وكبريائه.

وبناء على تلك الحيثيات الظالمة، والاستنتاجات الخائبة كفر فرعون ومن معه ﴿ **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ** ﴾ فكذبوا بموسى وهارون، رسولا الله تعالى، وبالآيات والحجج، والهدى والحق ﴿ **فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ** ﴾ فكانوا من المهلكين بالغرق. مما يفيد التحذير من العاقبة لمن كذب برسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه كما أهلك فرعون ومن معه، فإنه يهلك غيرهم بما يشاء سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بما أعطى كليمه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام من التشريع العظيم بعد أن أهلك فرعون ومن معه من الكافرين بالغرق ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ فيذكر الله تعالى بما امتن به على رسوله موسى عليه السلام من إنزال التوراة التي فيها تشريعه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ لتحصل لبني اسرائيل بهذا الكتاب الاهتداء لطاعة الله تعالى إن التزموا بها. فلعلهم بهذا الكتاب يهتدون إلى الحق، من خلال العمل به. ولفظة ﴿ **لَعَلَّهُمْ** ﴾ بمعنى لكي. فعلة وسبب إيتاء موسى الكتاب لكي يحصل لهم الاهتداء بالوصول إلى الحق وتطبيقه والتزامه.

ومن الدقائق أن بينت الآية الكريمة أن إيتاء موسى عليه السلام الكتاب هو لغاية وهدف، وهو أن يحصل به اهتداء بني إسرائيل ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ ففي ذلك بيان للترابط بين الإيتاء وسببه. وهي تفيد اطماعهم في الاهتداء بها، والتزامها ﴿ **لَعَلَّهُمْ** ﴾ لتفيد التحفيز والاستنهاض لهم بأن يهتدوا بالكتاب الذي أنزله عَزَّ وجل على موسى. ومن دقائق البيان أن خص الله تعالى في إنزال الكتاب موسى دون هارون عليهما السلام، باعتبار أن موسى هو المكلف بهذا الأمر، وقد أنزلت عليه وهو في الطور، وهارون كان يخلفه في قومه، فهو معه ردءاً مُعِيناً وناصراً مع موسى عليهما السلام. وهذا من عمق دقائق السياق.

ثم انتقل البيان الكريم إلى قصة عيسى وأمه عليهما السلام، لبيان عظيم وكمال قدرته عَزَّ وجل ﴿ **وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾ يذكر الله عَزَّ وجل بهذا

الحدث على ما يدل على عظمته وكمال قدرته بحادثة ولادة عيسى عليه السلام من غير أب. فقد امتننا على عيسى وأمه مريم عليها السلام، بأن جعلناهما آية من آيات الله تعالى المعجزة العجيبة، بأن حملت به؛ وولدته من غير أب، من غير ملامسة بشر لها، ليكون آية عظيمة تبين أن سنن الكون خاضعة لله وحده لا شريك له، يصرفها كيف يشاء، وأنه عَزَّ وجل يخالف سننه إذا شاء، لتكون آية للناس وحجة وعبرة، ودلالة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته وعظمته عَزَّ وجل، ولم يذكر جَلَّ جلاله عيسى باسمه في هذا السياق ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ بل نسبه إلى أمه، تنوبهاً بعظمة الحدث، بأن هذا الحدث آية جليلة وعظيمة. وكذلك فيه تعظيم شأن أمه مريم عليها السلام، وتعظيم انفراد عيسى عليه السلام بهذه الخاصية المعجزة من بين الناس أجمعين ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ فهي آية معجزة، وعلامة وحجة قاطعة بأن الله تعالى على كل شيء قدير. ومن دقائق المعاني أن كلمة ﴿ ءَايَةً ﴾ وردت مفردة بالرغم من تعدد الآيات في شأن عيسى وأمه عليها الصلاة والسلام، لأنها اجتمعت في إثبات قدرة الله تعالى. كما وردت بصيغة النكرة، لتفيد التعظيم، باعتبار أنها حوت آيات عظيمة، ولكنها اجتمعت في إثبات قدرة الله تعالى. فقد تكلم في المهد صبياً، وأطعم الله تعالى مريم في الصيف من فاكهة الشتاء، وأطعمها في الشتاء من فاكهة الصيف، وأسقط عليها الرطب جنيا.

ثم يخبر عَزَّ وجل بالمزيد مما امتن به عليها، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ فمن كمال إنعامنا على عيسى وأمه أن صيرناهما وجعلناهما يتجهان إلى ربوة، وهي المرتفع من الأرض على ما حولها، وذلك بهداية وتوفيق وعناية لهما مِنَّا ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ أي: صيرنهما، وجعلناهما يتجهان إلى الربوة. فمن كمال عنايته عَزَّ وجل بها أن أظهر وبين أنه هو الذي أواهما ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ ﴾ ليدل على كمال العناية منه عَزَّ وجل بها، ورفعة لشأنها عليها الصلاة والسلام. ليتبين أن من يتولاه الله تعالى بلطفه فإنه يهيئه للخير، ويهيئ الخير له.

والإيواء هو: أن يصير نحوه بالذهاب إليه، والمكوث والاستقرار فيه. والربوة هي المرتفع من الأرض على ما حولها، فيأويان ويسكنان فيها. قال ابن عباس رضي الله عنها: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات[1] وكذلك من صفاتها أنها ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي: جهة متصفة بالاستقرار وكمال الاستواء، من التمهيد، وخلوها من التعرج، ومن التباين في مسطحها. فإنها مستوية ومنبسطة، وواسعة بحيث يستقر الخصب فيها، ويستقر ساكنيها عليها، قال ابن عباس رضي الله عنها عن ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي: ذات

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٥٦)

خصب[١] وذكر القرطبي رحمه الله تعالى أنه قيل: ذات ثمار، ولأجل الثمار يستقر فيها الساكنون[٢] وكذلك مزودة بالماء البارز والظاهر ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ أي: الماء الجاري، البارز في ظهوره، بحيث يعاينه الإنسان ببصره. فاجتمع فيها ما يستقر به الساكن، من انبساط سطحها، ووفرة مائها، وكثرة ثمرها.

وأفاد تنوع معاني ودلالات ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ استيعابها لجميع الدلالات التي تظهر بها أوصاف الربوة على أحسن ما يكون من التكوين والتهيئة. مما يفيد أن الله تعالى إذا أراد لعبد مقاماً هنيئاً آواه إليه، وسهل له وهداه إليه. مما يعلم الإنسان عموماً، والمؤمن خصوصاً أن الهداية والتوفيق بيد الله عَزَّ وجل، فليسأل المؤمن ربه سبحانه وتعالى المقام الكريم الهنيء في الدنيا وفي الآخرة. ففي الآخرة المقام الكريم هو الجنة. وفي الدنيا التوفيق في جميع الأحوال والتنقلات. فإذا أطاع العبد ربه تولاه بتوفيقه وجميل تدبيره ورعايته له، فَيُسعِدُه بما يعطيه ويُنعِم به عليه. ليتقرر بذلك أن فقر العبد لربه متحقق في كل شيء وفي جميع الأحوال.

وفي هذه العناية من الله تعالى لمريم بأن تتجه لهذه الربوة حتى تنفرد وتنعزل بنفسها عن الناس حين جاءها المخاض، وذلك حفظاً لابنها عيسى عليه الصلاة والسلام، ولتخلو به عن الناس، وعن أقوالهم. فيكون لها لنفسها أريح مقاماً واطمئناناً، وأكثر هدوء، وكذلك لما اشتملت عليه من النخيل والزروع، حين أمرها الله تبارك وتعالى بأن تهز النخلة فيتساقط عليها رطباً جنيا، فتكون بذلك في ظلال النخيل، مع وجود الماء والطعام. فلا تحتاج إلى أحد من الناس، ولا إلى طعام غير الذي في الربوة. فسبحان الله المعطي والموفق والمدبر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما أمر ووجَّهَ به جميع الرسل في شأن أصل إباحة أكل جميع أنواع الطيبات، وأن يتزودوا بالأعمال الصالحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم أمره سبحانه وتعالى بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ الذي يفيد الانتباه والاهتمام لمضمون ما نودي له، وأهمية ما يدعوكم ويرشدكم إليه، لأن نداء العظيم الجليل إنما يكون لأمر عظيم، أو لنهي عن أمر شره

(١) المرجع السابق (٣/٢٥٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٨٥)

وبيل. وجاء الخطاب للرسل جميعاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ ﴾ وبالرغم من أنه لم يبق من الرسل حين نزول النداء في الآية الكريمة إلا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، إلا أنه ليفيد التعليم والإعلام بأن جميع المرسلين قد خاطبهم الله تعالى بذلك، فالجميع في هذا الشأن سواء، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم، فنادى رسوله محمد عليه الصلاة والسلام بما نادى به الذين من قبله من المرسلين. والمؤمنون تبع لرسولهم صلى الله عليه وسلم في هذا.

ثم ورد التوجيه بصيغة الأمر ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ليفيد قوة الإباحة في الأكل من طيبات الرزق الحلال. ولبيان أن جميع الرسل يأكلون كما يأكل بقية البشر، فليس لهم طعام مخصوص دون غيرهم من الناس. وفيه الإفادة بأن المرسلين لا يأكلون إلا الطيبات في نوعها، وفي مصدرها وكسبها، فلا يأكلون ما كان حراماً. وأنهم منزهون عن ذلك، وأن المؤمنين على نهج رسلهم، يتورعون عن كل ما ليس من الطيبات. وكلمة ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ جامعة لكل مطعوم حلالاً في أصله، ونوعه، وكسبه. ومن دقائق البيان أن سبق الطيبات حرف ﴿مِنَ ﴾ ليفيد التبعيض المناسب لحاجة الإنسان من أنواعها، ولما تميل إليه النفس من الطيبات. ولبيان كثرة الطيبات، فتخيروا منها ما تحبون وتشتهون، فإن خير الله واسع، ومتعدد، ومتنوع. ثم تلى ذلك التوجيه الأمر بعمل الصالحات، فعطف سبحانه وتعالى الأمر بالعمل الصالح على الأمر بالأكل من الطيبات ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ وهي المهام التي أوكلت إليهم، بأن يلزموا العمل بها، وفق ما شرعه تبارك وتعالى لكل رسول منهم، وكل تشريع من الله تعالى هو متصف بكمال الصلاح. والصالحات هي المتصفة بالاستقامة. والعمل بالصالحات هو الاستقامة على نهج الشريعة.

وفي العلاقة بين أكل الطيبات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وبين العمل بالصالحات ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ما يفيد تأثر قوة الأداء في العمل بالصالحات بالأكل من الطيبات. فيتزودون بما يعينهم على أداء الأعمال الصالحة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالة، ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً[١] مما يفيد أن الكسب الحلال قوة للمؤمن في الأداء والتحصين والتوفيق والعون من الله تعالى له.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٥٧)

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم علمه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فإني بأعمالكم التي تقومون بها عليم، فلا يخفى عليَّ شيء منها، مما يفيد مجازاتكم عليها، بتوفية أجوركم وافية كاملة غير منقوصة، وإثابتكم بالثواب العظيم على طاعتكم وأعمالكم الصالحة. وفي هذا تحفيز لهم نحو كمال الطاعة. ولذلك وردت سيرة المرسلين بأكمل ما يكون عليه الإنسان من الطاعة والنصح، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء. ومن دقائق البيان أن ﴿عَلِيمٌ﴾ من صيغ العموم والمبالغة، التي تفيد كمال العلم في سعته وإحاطته وشموله لكل شيء، مما يفيد غرس مراقبة الله تعالى في شؤون المسلم وتصرفاته.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما أمر به الرُّسُل من الأكل من الطيبات، والقيام بالأعمال الصالحة، يخبر عَزَّ وجل بما خاطب به الأنبياء عن وحدة دينهم، وأنهم مجتمعون جميعاً على ملة واحدة. وذلك بوحدة ما دعا إليه جميع الأنبياء من توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وعبوديته، ونبذ الشرك، والتزام توحيده بالعبادة والألوهية والربوبية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فإن هذه ملتكم أيها الرسل هي ملة واحدة، تقوم وترتكز على توحيد الله تبارك وتعالى في عبادته، وأنه هو الْمُشَرِّع لها: عبادة ومعاملات. والمراد بالأمة هنا ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: الدين الذي هو الإسلام. وأصل الأمة الجماعة التي على مقصد واحد، فَسُمِّي الدين أمة واحدة، لاجتماع أهله على مقصد وغاية واحدة ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على دين واحد، وهو الإسلام، وبالتالي أبطل كل ما سوى الإسلام من الأديان. فالملة التي جاء بها الأنبياء هي ملتكم ودينكم أيها العباد، فدين الله تعالى واحد، وربكم واحد ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فأنا ربكم، لا غيري رباً لكم، فالتزموا التقوى، وذلك بعبادتي وحدي.

مما يُوجب عليكم نفي الشرك، وصرف العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. وقد أكد ذلك بأن حصر سبحانه وتعالى الربوبية فيه وحده لا شريك له ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ فأنا ربكم، لا غيري رباً لكم، بعد أن عطفها على ما قبلها، بأن دينكم الذي جاء به المرسلون واحد من لدنه عَزَّ وجل. ثم أنهى البيان عَزَّ وجل بأمر الوجوب ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فالتزموا بصرف التقوى لي وحدي لا شريك لي، وبالتالي اجعلوا الخوف والرجاء الذي هو عماد التقوى لربكم وحده لا شريك له، ولا تشركوا معه أحد في التقوى. وبالتالي يجب عليكم صرف العبادة لي وحدي وِفْقَ ما أمرتكم به، ولا تشركوا معي غيري. وفي هذا غاية البيان بتحريم الشريك مع الله سبحانه وتعالى، وأنه كفر، ومنافٍ لما أمر الله تعالى به. وأن دين الله تعالى واحد في أصله. وإن اختلف الأنبياء في تفاصيل التشريع وفق ما نزلت به الكتب السماوية.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بما وقع وحصل من تفرق فيما سبق من أتباع الدين إلى أحزاب ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ فتقطعوا بالتفرق في الدين بعد وحدتهم. فيكشف بذلك حقائق الأمم، وما كان منها، من الافتراق والتحزب. وفي التنويه عن ذلك بلفظة التقطع ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ ما يفيد التمزق والانفصال، والتقطيع يحصل بالشد والقوة في الانفصال، مما يدل على ما كان من الأمم في تفرقها، بأنه كان بأسلوب التقطيع، المفضي للانقسام والتمزق، وبأسلوب الشد والقوة. فإنها كلمة معبرة عن الأصل المتين المتماسك الذي تقطع بعد وحدته. فإن حرف الفاء أفاد الترتيب، بأن التمزق متفرع بعد وحدتهم. وفي هذا كشف لحقائق الأمم، وما كان منها، وفي نفس الوقت هو تنبيه وتحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من أن تسلك مسلك التقطع. وقد أوضح البيان الكريم عين التقاطع والتقطع ومفصله الذي وقع فيه وعليه التمزق فقال تعالى ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم ﴾ أي: أن التقطع والتمزق كان محله ومركزه واقع في أمر دينهم وشأنه، فاختلفوا فيه.

مما يدل على أثر الأهواء، وعدم الرجوع للنص الشرعي، وعدم الرجوع للراسخين في العلم، الذين يعرفون دلالات النصوص الشرعية. وأنه لم يكن هناك تدخل من غيرهم في خلافهم ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ فقد كان الخلاف ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي: بين أهل الملة الواحدة ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا ﴾ فأصبحوا جماعات، وكلمة ﴿ زُبُرٗا ﴾ تفيد أن كل فرقة ومجموعة صارت منفردة عن غيرها. أي: قطعاً منفردة، وفرقاً مختلفة، قد انتفت بينهم الوحدة والاجتماع، فكل فرقة ترى الحق معها، وتنبذ جميع ما عداها.

ثم يبين سبحانه وتعالى ويوضح مشاعر كل فرقة بما هي فيه، وما هي عليه مما خالفت فيه غيرها ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ فكل فرقة حزبية مسرورة ومعجبة بما هي عليه. وكلمة ﴿ حِزۡبِۭ ﴾ تدل على المجموعة التي ترابطت على أمرها، وتوافقت عليه، مما يدل على شدة افتراقهم عن الأصل الذي كان وحدة لهم. مع تماسك كل فرقة فيما بينها على ما افترقت فيه، ويعضدهم الفرح والتباهي بما هم عليه.

وقد أثبت البيان الكريم تساوي الفرق والأحزاب التي تمزقت عن الوحدة في شدة الفرح على ما هم عليه من الفرقة ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ وبالتالي نفى البيان تفاوت مقدار الفرح بين تلك الأحزاب التي تمزقت عن الأصل، بما يفيد أن كل فرقة معجبة بذاتها أشد الإعجاب، وترى أنها تملك الحق وحدها، وغيرها على باطل مجزوم به في نظرها وفي حكمها على غيرها، مما يدل على قوة التباعد بعد الوحدة التي كانوا فيها وعليها ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ فجملة ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ ﴾ تدل على الجميع ﴿ بِمَا لَدَيۡهِمۡ ﴾ بماهم عليه من

الرأي المخالف والمفارق للأصل ﴿ فَرِحُونَ ﴾ أي: مسرورون به. والفرح يدل على شدة الاغتباط والسرور، بما يفيد كمال الرضا عن أمرهم الذي افترقوا به عن الأصل، بما لا يدفعهم إلى الحوار مع غيرهم فيما هم عليه من الرأي والخلاف. وفي هذا تحليل دقيق من رب العالمين لشأن الافتراق، مما يفيد التحذير منه، والحذر من المشاعر التي يشعرون بها. فإنها ليست على حق. بما يفيد الحذر من أسبابه، ومن الوقوع فيه.

ويتجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن قومه ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فيا أيها النبي اترك هؤلاء الذين كفروا بك، ولم يؤمنوا بنبوتك ورسالتك وبالقرآن الذي جئتهم به. فلا يضيق صدرك بكفرهم، وبما يقولون: من أنه ساحر، ومجنون، وغيرها مما يؤذونك به. فاتركهم ﴿ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ أي: في غيهم، فيما غمروا وغمسوا أنفسهم فيه من الباطل والضلال والشرك، فاستتروا به عن الحق. وفي وصف حالهم الذي يمتنعون به عن التصديق بلفظة الغمر ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ما يبين عمق ما أحلوا أنفسهم فيه من الضلال والكبرياء والحسد الذي قادهم إلى رفض الحق المبين، فشأنهم الحقيقي هو أنهم قد اغتمروا، وتغطوا بالكفر إلى درجة الانغماس الذي استوعب قلوبهم وعقولهم. لأن كلمة الغمر تفيد كمال التغطية، كالذي يغتمر في الماء، فيحيط به من كل جانب، فيستره. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الغمرة: الماء الذي يغمر القامة، فَضُرِبت مثلاً لما هم مغمورون فيه، من جهلهم وعمايتهم[1] فَتَغَطَّت قلوبُهم بالكفر والحقد والحسد، والتعالي والكبرياء، فامتنعوا بما اغتمروا به من الباطل عن الإيمان بالحق المبين.

فيوجه اللهُ تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بتركهم ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فلا تنشغل بهم أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا تحزن عليهم، ولا يضيق صدرك بشأنهم، واتركهم في غمرتهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ حتى يحين أجلهم بما يشاء الله تعالى فيهم. ولكن هذا الترك سيكون إلى وقت محدد عند الله تعالى، فيأخذهم عَزَّ وجل بما يشاء مما يستحقون. فإن وقت ونوع العذاب مُسنَد إلى علم الله تعالى، فقد يكون عاجلاً في حياتهم الدنيا، وقد يكون بنهاية آجالهم. فلم يحدد سبحانه مدته، ولا نوع ما ستكون عليه نهايتهم، ليفيد التهديد البليغ الذي لا يُعْرَف موعده ولا نوعه. وهو أبلغ في الوعظ والتحذير. لينشغل الذهن به خوفاً وتفكيراً. فإما أن يتروا كفرهم ويقلعوا عنه، وإما أن يستمروا في طغيانهم، فيحل عليهم ما قَدَّرَهُ اللهُ تعالى عليهم من نوع النهاية الفاصلة. وهذا التهديد هو من رحمته سبحانه وتعالى، لعلهم يهتدون، ويرتدعون عما هم من الجحود والكفر.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١٨٩/٣)

ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عما في نفوس هؤلاء المغرورين مما يمدهم الله به سبحانه وتعالى من الخير، ومعالجة لِمَا قد يدور في أذهان البعض من عطاء الله تعالى للكافرين ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ سؤال استنكار وتوبيخ لفهمهم، وتقرير خطأ تفكيرهم وتحليلهم وتعليلهم لما هم فيه مِن مَدد الخير لهم من الله تبارك وتعالى، مع بُعدهم عن الصواب والحق ﴿ أَيَحْسَبُونَ ﴾ أيعتقد هؤلاء المغمورون في غيهم ﴿ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ ﴾ أي: ما نزودهم ونُغدق عليهم به ﴿ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي: ما نعطيه ونهبه لهم من الأموال والأرزاق والذرية هو مسارعة لهم في الثواب ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فإن الأمر ليس كذلك.

فقد ورد وصف عطاء الله تعالى بالإمداد ﴿ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ ﴾ وهو العطاء المتلاحق والمتتابع، الذي يدل على كرم الله تعالى وفيضه عليهم بأنواع الخيرات المتتابعة والمتلاحقة، بعضها بعد بعض، وبعضها فوق بعض. ليبين عظيم قدرة الله تعالى، وكذلك الكشف لفيض الكثرة من الإنعام عليهم، بما يلزمهم شكر هذه النعمة بالطاعة والامتثال. وليتبين أن الكثرة قد تكون للاستدراج، مما يبين أن على الإنسان أن ينظر لحاله، هل هو على استقامة، فيحمد الله تعالى، أو على معصية، فيكون استدراجاً من الله تعالى بها له، وهو يحسب أنه إكرام له.

كما ورد البيان عن حالهم بصيغة الحصر ﴿ أَنَّمَا ﴾ فحصروا دلالة امداد الله تعالى لهم من الخير والبنين بأنه مسارعة لهم بالثواب من لخيرات ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي: مكافأة وإكراماً لهم بالخير إلى درجة المسارعة، وأنه ليس خارج عن ذلك، بل محصور ومقصور على المكافأة.

وذكر الله تعالى هنا المال والبنين على وجه التخصيص من عموم الخيرات ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ والتي عممها في قوله عَزَّ وجل ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وذلك لأن المال والبنون أكثر ظهوراً في النفس البشرية، وكثيراً ما يعول الخير فيها، فخاطبهم بما يفهمون ويعتقدون، بل خص البنين بالذكر دون الإناث، لأن الذكور أوجه في الخدمة والتباهي عندهم، وخاصة ذلك الوقت، حين كانوا يئدون البنات. مما يبين الإعجاز الخطابي في القرآن الكريم، والإعجاز في المعالجة للنفوس، وتحليل خفاياها، كما هو الإعجاز في قوة البيان وبلاغته.

أيعتقدون يا أيها النبي أن ذلك الخير من المال والبنين هو ثواب لهم، ومجازاة لهم. والحسبان في قوله تعالى ﴿ أَيَحۡسَبُونَ ﴾ يفيد بيان ما يعتقد اعتقاداً مخالف للحقيقة، فيحكم للشيء على نقيض حكمه الحقيقي، فهم يفسرون ويحللون ثم يعتقدون، ثم يحكمون حكماً مناقضاً للحقيقة. فهي كلمة معبرة وكاشفة لأدق ما في نفوسهم. وورد بصيغة الاستفهام. وهو سؤال تعليمي، يستثير التفكير والتأمل لمن كان فهمه ذلك الفهم المنتكس، ليفيد أن الأمر ليس كذلك ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ بل إنهم لا يشعرون بأنه استدراج لهم، فإن غمرتهم جعلتهم يتأولون عطاءنا على غير الحقيقة والهدف والمراد والمقصد منا لهم به.

ومن جميل البيان أنه ورد بيان مشاعرهم وتحليلهم في أدق ما في نفوسهم، وهي تأويلهم لعطاء ربي لهم على نحو المسارعة والمبادرة في المكافأة المعبرة عن رضا الله تعالى عنهم ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ ثم يأتي الانتقال من فهمهم واعتقادهم الخاطئ إلى الحقيقة بأسلوب الإضراب والمخالفة ﴿بَل﴾ فقد أبطل حرف ﴿بَل﴾ اعتقادهم بالمخالفة لتفسيرهم الذي هو ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ وكذلك لحسبانهم، وهو الحكم المنافي والمخالف للحقيقة ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾ التي تفيد تهجين تفسيرهم وتحليلهم لعطاء الله تعالى، لينقلهم إلى الحقيقة المخالفة لتأويلهم وتفسيرهم. فإن الأمر ليس كذلك. مما يفيد ويبين أن تأويل كثرة النعمة لا تعني حتماً رضا الله تعالى عمن أنعم الله تعالى عليهم، ولا يعني قلتها غضب الله تعالى لمن قل في يده الخير. وأن التفسير والتأويل يجب أن يكون على علم وبينة ورشاد. وفيه التنبيه والتحذير من الغفلة، والزيغ، ومن الكبر والحسد، ومواجهة الحق بالمفاسد والفساد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ ﴾

بعد أن بين وكشف سبحانه وتعالى حال أصحاب القلوب الزائغة، الذين غمرهم الجهل والكفر والحسد، يوضح ويبين تبارك وتعالى ما يقابلهم من اصحاب النهج الصحيح، الذي كان من واجب أهل القلوب الزائغة أن يكونوا مثلهم، أي: مثل أصحاب النهج القويم، وهم أصحاب القلوب التي غمرها الإيمان، وهم أهل الخشية، والتوحيد الذين أفردوا الله تعالى بالتوحيد والطاعة، والموصوفون بأعظم أربعة أوصاف من ربهم جَلَّ في علاه، والتي جمعت معالم الفوز والنجاة. فأول تلك الأوصاف: الإشفاق ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم

مُّشۡفِقُونَ ﴾ فمع إحسانهم وإيمانهم، واجتهادهم في طاعة ربهم فإنهم مع ذلك لم يصبهم الغرور، بل إنهم في خشية من ربهم عَزَّ وجل، وذلك من خوفهم أن يكونوا مقصرين، فيخشون عقاب ربهم، فحصل لهم الخوف، وهو الإشفاق. فانتفى منهم الغرور. فقد نفى عنهم سبحانه وتعالى الغرور، فيكون ذلك شهادة عزيزة من ربهم عليهم بهذا المدح والثناء العظيم على ما اتصفوا به. مما يفيد ويبين مخاطر الغرور التي تجعل من صاحبها مسارع في تماديه، زاعماً أنه المحق فيما هو عليه من الانحراف، وذلك نتيجة استشعاره لكمال الصواب فيما هو فيه من الأعمال الخبيثة، وربما جزم بتحصيل الخير وتحققه له، ونفاه عن غيره.

وقد استهلت الآية الكريمة وصفهم بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي أفاد التوكيد والاهتمام بما بعده من بيان وصفهم وتوصيفهم، كما تقدم التعليل أو السبب على النتيجة لإظهاره وإبرازه. فالسبب هو الخشية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم ﴾ خشيتهم، وهو الخوف المختلط بالتعظيم والمهابة لربهم، ولِحَقِّه سبحانه وتعالى في كمال الطاعة. فدلالة الخشية ﴿ مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم ﴾ تفيد تألم القلب خوفاً من التقصير عن كمال الطاعة، وذلك هيبة وإجلالاً لمقامه العظيم تبارك وتعالى. وهذه الخشية جعلتهم ﴿ مُّشۡفِقُونَ ﴾ والشفقة هي العناية المختلطة بخوف، وهي صرف الهمة وتوجه الإرادة إلى معالجة مشاعر الخوف بزياد الطاعة. مما يدل على مسارعتهم في الطاعة، لأن إشفاقهم على أنفسهم هو نتيجة خشيتهم من التقصير، فخافوا وهبوا نتيجته عند الله تعالى، فجعلهم ذلك يسارعون في الطاعات، بعكس أولئك المغرورين الذين يحسبون أن ما يصيبهم من الخير هو مسارعة لهم في الجزاء، بكريم العطاء.

وقد ورد في أول سورة المؤمنون ﴿ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ أي: من صفاتهم أنهم نتيجة خوفهم وإجلالهم لربهم تبارك وتعالى فإنهم ﴿ مُشۡفِقُونَ ﴾ أي خاضعون، خائفون، متذللون لربهم عَزَّ وجل. بما يفيد اختلاط الحذر عندهم مع مخالطة الخوف الذي يدفع إلى المزيد من بذل الجهد في الطاعة والانقياد لله تعالى. ليدل على كمال الذل والطاعة والخوف من الله تعالى.

فالخشية هي الجمع بين رجاء ما عند الله تعالى من كريم العطاء، وبين مخافتهم من الله تعالى، وهو الجمع بين مخافتهم من الله تعالى، ورجائهم في الله تعالى، فابتعدوا عن المواطن التي تُغضب الله عَزَّ وجل. مما يدل على عمق دلالة الخشية والشفقة. فإن الخوف الناتج من الشفقة يجعل الرهبة من الله تعالى تخالط قلوبهم، فيمتنعون عن معصية الله تعالى، ويستعيذون به منها، ومن خزي الدنيا والآخرة. مما يبين أهمية الخشية من الله تعالى، وأهمية الأمل في الله تعالى، وفي خيره وبره وكريم عطائه عَزَّ وجل، وأن يعيش المؤمن راغباً غير قانط

في خير الله تعالى ورحمته، ومتباعداً عن اليأس من رحمة الله تعالى، ويكون خائفاً من أن يعصي الله تعالى فيحل عليه انتقامه ونقمته ومعاقبته له.

والصفة الثانية هي: الإيمان بحجج الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فهم بجميع حجج الله تعالى موقنون بها، ومصدقون بما دلت عليه من قدرته عَزَّ وجل وعظمته، وسلطانه، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، وسواء كانت آياته الكونية، أو آياته المتلوة من القرآن العظيم. فيزدادون بها إيماناً وتصديقاً. وأما الصفة الثالثة لهم، فهي: بُعدهم عن الشرك ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾ فهم موحدون لربهم، فلا يشركون به شيئاً أبداً، فإنهم مؤمنون معتقدون بأن الله تعالى واحد أحد، فرد صمد، ليس له شريك في ملكه، ولا يستحق العبادة إلا هو عَزَّ وجل، فيوحدون ربهم في ربوبيته، وألوهيته، وعبادتهم له وحده لا شريك له.

والصفة الرابعة، هي: الجمع بين الطاعة وبين خوفهم من أنهم لم يستوفوا ما يجب عليهم من الطاعة لربهم تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ وهم يُعطُون ما أَعْطَوا، ويعملون ما عملوا من أعمال البر، والطاعة، ومع ذلك فإن قلوبهم وجلة وخائفة من التقصير، وعدم الوفاء. فجملة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ جمعت التنوع في العطاء، وتنوع المقدار من الكثرة والقلة، وكذلك التنوع من جميع ما رزقهم الله تعالى، فيقومون بأنواع الخير من الطاعة والإنفاق والبذل مما أعطوا، وأنهم مع هذا الاجتهاد في الطاعة فإنهم في خوف من النقص الذي يمنع قبولها من الله تعالى ﴿ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ فقلوبهم تستشعر الخوف على سبيل الإشفاق والتحوط من أنهم سيعودون إلى ربهم فيحاسبهم ﴿ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ فإيمانهم بالبعث والحساب يجعلهم يخافون من ذلك اليوم، ومن أن يكونوا قد أنقصوا ولم يستوفوا ما أُمِرُوا به من حق الوفاء الذي يسلمهم من الحساب والعقاب.

فهي مشاعر المؤمن الذي يؤمن بيوم الحساب، فتجعله يحاسب نفسه من أن يكون قد قَصَّر في أعماله بشيء من التقصير عما يجب. وهذا الإيمان يربي في المؤمن البر والعطاء، والإقدام على الخير من غير تردد، والإمساك عن الشر، بل الإمساك عما يشك فيه. فإنها تربي في المؤمن خصالاً لا يستطيع إدراكها إلا بخصيصة الإيمان الممتلئ بالخشية، مما يُثبت نفي الخشية عن الذين لا يؤمن بيوم الحساب.

وقد وصف الله تبارك وتعالى أثر تلك المشاعر القلبية التي لديهم على مسلكهم في الأعمال، بأنهم يسارعون في أبواب الخير من غير تردد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ فأولئك المؤمنون

المتصفون بتلك الأوصاف الأربع المشار إليهم بها، من خلال اسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ والعائدة عليهم، بأنهم ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ لا يتباطؤون في فعل الخير، بل يسرعون فيه بإقبال ليس فيه تردد، وبكرم ليس فيه بخل، لأن الإسراع يفيد المبادرة من غير تردد. وجاءت كلمة الخير بصيغة الجمع ﴿ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ لتفيد الشمولية والكثرة والتنوع، فيسارعون في جميع أبواب الخير. بل ﴿ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ أي: يسبقون بالمبادرة إلى فعلها، وإلى وقتها، إلى الدرجة التي يتحقق فيها صورة التسابق. فهي كناية عن التسارع في المبادرة، المفضي إلى التسابق، فحالهم حال من يتسابقون ويتبارون في ميدان التسابق من شدة قوة المبادرة وسرعتها في الخير. فأعطوا صورة مثالية في محبتهم لربهم، بامتثال منهجه وشرعه الكريم. قال ابن عباس رضي الله عنهما في معناها: أنه سبقت لهم من الله السعادة، قبل مسارعتهم في الخيرات، ولما سبق لهم من ذلك سارعوا فيها[(١)] وهو وجه يزيد في معناها ورحابة دلالتها. وقد جمع السعدي رحمه الله تعالى الدلالتين بقوله: قد بلغوا ذروتها، وتباروا، وهم الرعيل الأول. ومع هذا، قد سبقت لهم من الله تعالى سابقة السعادة، أنهم سابقون[(٢)] قد بلغوا ذروتها، وتباروا، وهذا هو الوجه الأول مما كان منهم. ثم الوجه الثاني في دلالتها: بأنه قد سبقت لهم من الله تعالى سابقة السعادة. وفي هذا دلالة على غزارة السياق الكريم الذي استوعب الدلالتين في رحابة بيانية عظيمة. مما يُظهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٦٢) بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ (٦٧) ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى حال الفريق الذي كفر، وحال فريق المؤمنين الذين يسارعون في الخيرات، يخبر تبارك وتعالى بأنه لم يكلف العباد في شريعته بما يشق عليهم، أو يعجزون عنه، وذلك لعلمه بوسع وقدرة ما خلق، فجعل تكاليفه سبحانه وتعالى مراعية لذلك أشد المراعاة، بدليل أولئك الذين يسارعون في الطاعات، مع خوفهم من التقصير ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ فابتدأت

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٧٢-٧٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٦٣)

الآية الكريمة بنفي المشقة التي لا تسعها القدرة البشرية، أو تستثقلها ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فقد جرت سنتنا فيما نكلف به العباد من التكاليف في جميع ما شرعناه، أنه لا يكلف سبحانه وتعالى نفساً من النفوس إلا بقدر قدرتها، وما تتحمله طاقتها. وهذا من لطفه ورحمته وعدله في شرعه سبحانه وتعالى.

بل من رحمته عَزَّ وجل، وإعجاز بيانه أن أورد السياق بإفراد كل فرد من العباد ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فكل نفس لها وسع محدد ومقدر يَعْلَمُهُ الله تعالى عن عباده المكلفين، بأن لهذا العبد المكلف قدرات محددة، فجعل في شرعه ما يراعي مقدار ما عنده من الطاقة والقدرة والعجز. ففي الإسلام جعل سبحانه وتعالى عدد الصلوات المفروضة خمس في اليوم والليلة، وجعل القصر والجمع للمسافر، ورخَّص للمريض والعاجز بأن يصلي قاعداً وإن لم يسطع فعلى الحال التي يستطيعها، وجعل الصيام شهراً واحداً في السنة، على البالغ العاقل، ورخص للمسافر والمريض بالقضاء، وجعل الحج مرة واحدة في العمر، وجعل زكاة الفطر صاع في السنة، وحدد زكاة الأموال وعروض التجارة بما لا يشق على العباد. وجعل في الأذكار باللسان أجوراً عظيمة. فإنها رحمة الله تعالى في تشريعه.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى أن مِن كمال عدله توثيق أعمال كل أحد من عباده ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ فأعمال العباد مسجلة ومحفوظة عنده في كتاب محفوظ، ليثبت ويُظهر الحق المطابق والمتوافق مع الواقع، وقد امتنع عنه التغيير والتبديل. بما يفيد كمال إحاطة علمه بأحوال عباده سبحانه وتعالى، إحاطة ينتفي بها الظلم، إذ لا يُزاد فيه، ولا يُنقص منه بشيء أبداً. بل إن الله تعالى قد زَكَّاه عَزَّ وجل بأن جعل مكانه عنده جَلَّ جلاله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ ﴾ فهو محفوظ عنده جَلَّ جلاله. وقد امتنع عنه التغيير والتبديل. ومن صفات هذا الكتاب أنه ﴿ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: يُظهر الحق المطابق والمتوافق مع الواقع، من غير بخس لأحد في حسناته، أو زيادة عليه في تقصيره وعصيانه، وهو اللوح المحفوظ.

ومن بلاغة البيان، وقوة دلالته ومحتواه أن وُصِف الكتاب بالنطق بما فيه من الحق الذي أثبته، فأصبح من دقته أنه يوضح ويُوَثِّق ما كُتِب ووثِّق فيه كما ينطق المتكلم ويشهد الشاهد، ويوضح الناطق بما يعرف ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ تبياناً بأنه أصبح شاهداً بمحتواه على العباد، فيمتنع الظلم عنهم ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي: فلا تُبْخَس حسناتهم فيلحقهم الظلم، ولا تُزَادُ سيئاتهم فيلحقهم الظلم بالزيادة. وفي هذا تهديد وتخويف وترهيب لكل من يعصي الله تعالى ولا يتقه عَزَّ وجل، وكذلك يتضمن البشارة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن جهدهم محفوظ مهما كان صغيراً أو كبيراً.

قال القرطبي: وقيل: أنهم يقرؤونه، فيذكرهم الكتاب ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم، ودليله في سورة الكهف، من قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾[1] مما يبين دقة رصد أعمال الإنسان بأدق ما يكون.

ثم يعود البيان الكريم مرة أخرى إلى كشف وتعرية أحوال المكذبين القلبية، بما يبين تماديهم في الكفر ﴿ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ فقلوب الكفار في غطاء وعماية وغفلة وضلال ﴿ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ أي: من القرآن العظيم. وورد البيان الكريم للكشف عن حقائق الكافرين الصادين عن القرآن الكريم بحرف ﴿ بَلۡ ﴾ الذي يفيد الانتقال إلى ما هو أغرب مما سبق من الوصف للكفار في هذه السورة، وهو ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦ ﴾ وأنهم كانوا في غمرة ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وتعليل ما هم فيه من عطاء الله تعالى أنه مسارعة لهم في الخيرات. ومن جميل البيان ودقته أن وردت العودة لحالهم بعد بيان ما هو ضد حالهم، من نهج المؤمنين، الذين يسارعون في الخيرات وهم مشفقون. لتتجلى الفروقات بوضوح وجلاء بين الفريقين. مع زيادة البيان في تقرير سماحة تشريعه عزَّ وجل، الذي يؤكد ويبين أنه خالٍ من المشقة التي يتعذر بها الامتثال ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ مما يبين أن الانتقال بالعودة إلى وصف حال الكافرين كان انتقالاً بديعاً، بل غاية في البيان الذي يوضح انتفاء الموانع من دخولهم في دين الله تعالى، غير أنهم مُولعون بما هم عليه من الكفر، وقوة الاستكبار والحسد، ومحبة إيثار مفاتن الدنيا.

فيخبر جَلَّ جلاله أن قلوب المكذبين منغمسة في ضلالهم ﴿ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ ﴾ فقلوبهم مغمورة، بما صدها عن سماع وفهم ما أودعه الله تعالى في كتابه الكريم من الحج والبراهين والمواعظ. حتى أصبحت قلوبهم منغمسة إلى أبعد ما يكون في الجهل والضلال والإعراض ﴿ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ الذي هو القرآن العظيم، وما فيه من الحجج والبراهين. فأصبحوا في غفلة عن الإيمان بالقرآن العظيم. بما يفيد أنهم لو استمعوا له، لخرجوا مما هم فيه من الانغماس في الضلال. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والضمير للكفار، أي: قلوب الكفار في غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق. أو عن الأمر الذي عليه المؤمنون. كما تتسع دلالة البيان لمعنى

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٦/١٦)

أن قلوبهم في غفلة عن الذي عليه المؤمنون[١] وتأتي هذه الدلالة باعتبار العلاقة الترابطية بين القرآن وبين تطبيق تطبيق المؤمنين له. مما يبين ويفيد أن حجج القرآن العظيم هي المخرج لكل من غار في الكفر والضلال. لما في آياته من البيان والحجج الداحضة لجميع أنواع الأباطيل. ولذلك مَثَّل المؤمنون من الصحابة التطبيق العملي للقرآن. وقد تكرر وصف الغمرة لهم مرتين: الأولى: حين الأمر بتركهم ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ والثانية: عند وصف حالهم مع القرآن الكريم ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ فأصبح الانغمار الذي هو الانغماس في الضلال ووحولهم فيه، هي صفة لحالهم. فكان بياناً دقيقاً ورائعاً.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن لهؤلاء الكفار أعمالاً دنيئة وسيئة غير ما سبق ذكره عنهم ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ فزيادة على ما بيَّنَّا من أن قلوبهم في غمرة من الضلال عن القرآن، فإن لهم أعمال سيئة، وأسوء مما ذكرناه من مفردات فنون كفرهم، وهم ﴿ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ فهم عليها مستمرون، لا يحبون الإقلاع عنها وتركها. وكذلك تفيد دلالتها: أن لهم أعمال سيئة من دون ما هم عليه، سيقدمون على فعلها. قال الواحدي رحمه الله تعالى: إجماع المفسرين وأصحاب المعاني على أن هذا إخبار عما سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التي كُتِبَت عليهم، لا بد لهم أن يعملوها[٢]

ووردت أعمالهم بصيغة الكثرة ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ أي: ليست قليلة، بل كثيرة، ومتنوعة من أنواع الضلال، مما يبين هيئة الاغتمار والانغماس، وعمقه. ثم تتأكد بالممارسة المستمرة ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ الممارسة التي لا تتوقف ولا تنقطع.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: من دون أعمال أهل الإيمان بالله، وأهل التقوى والخشية له عَزَّ وجل[٣] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: فالإشارة بقوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إما إلى أعمال المؤمنين، أو إلى أعمال الكفار، أي: لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى، أو من دون أعمال الكفار التي تقدم ذكرها، من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما ذكر، وهي فنون كفرهم، ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٩/٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٩/٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٤/١٧)

القرآن[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى أن: ﴿ دُونِ ﴾ تدل على الْمُخَالِفَة لأحوال المؤمنين، أي ليسوا أهلاً للتحلي بمثل تلك المكارم. وذكر قبلها رحمه الله تعالى عن اسم الإشارة: ﴿ هَٰذَا ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أنه يعود إلى ما ذُكر انفاً من صفات المؤمنين في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[٢] وفي هذا ما يدل على سعة استيعاب القرآن العظيم للأوجه التي توضح المقصد والمراد بسياق واحد، وفي استيعاب بديع لجميع المعاني والدلالات، دون الحاجة إلى تكرار السياق. وهذا من الإعجاز في البيان للقرآن العظيم.

وفي هذا تحليل وكشف ومعالجة لما هم فيه من الكفر والصدود عن دين الله تعالى، وعن عموم حجج القرآن العظيم. مما يفيد التوبيخ لهم فيما هم واقعون فيه، وتنبيه لهم بعلل حالهم، وأسباب عزوفهم عن حجج القرآن وبراهينه، لمعالجة أنفسهم، والحذر من حالهم الذي هم عليه. وفي نفس الوقت هو بيان تعليمي للحذر من مثل هذه المسالك الكفرية.

ثم يخبر الله تعالى عن حال الكافرين حين ينزل عليهم العذاب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ حتى إذا وقع العذاب بهؤلاء المترفين المغمورين في غيهم ورفاهيتهم التي أطغتهم ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ فإذا بهم يصرخون صياحاً، ولهم ضجيج من الصراخ ورفع الأصوات، يستغيثون بعد أن كانوا يتطاولون على الحق، وعلى رسولهم، وعلى القرآن، وعلى المؤمنين. قال مجاهد رحمه الله تعالى: بالسيوف يوم بدر[٣] وخص مترفيهم من سادتهم، لأنهم قادة لغيرهم في الكفر، وهم الرؤساء فيهم، والأغنياء، المحرضين للناس من أتْبَاعِهم، والذين كانوا أكثر ترفاً وطغياناً وتعاظماً، وفي هذا بيان أن علوهم على غيرهم لم يمنع عنهم العذاب، ولم يمنعوا عن أنفسهم ما أصابهم من الهلاك، فلم يكن في غناهم ورئاستهم وتعاظمهم ما يدفع عنهم ما أصابهم من العذاب، مما يدل على قوة انكسارهم وشدة إهانتهم. ومما يفيد أن أمر الله تعالى إذا جاء فلا قوة تستطيع أن ترده، فاعتبروا أيها الناس بذلك.

فيأتيهم الزجر والتأنيب من الله تعالى، فيقال لهم ﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ لا تضجوا بالصراخ والويل والاستغاثة. فلا نجيركم مما حل بكم اليوم من العذاب، فلا تستغيثوا من العذاب، فلن

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٩/٣)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦١/٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٨/١٧)

تنتفعوا بصراخكم واستغاثكم، فقد وجب العذاب فيكم ونزل، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ فلن تُنصروا مما أوقعناه بكم اليوم من العذاب. فلا مانع لكم ولن تُمْنَعُون من عذابنا، ولن ينفعكم تضرعكم اليوم. فإنه زجر وتقريع وإهانة لهم، جزاء وفاقاً لما كان منهم من رد الحق بكفرهم وبغيهم وطغيانهم.

ثم يخبر الله تعالى بما يُقالُ لهم عن أسباب ما أصابهم ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ فقد كانت آياتي من القرآن العظيم تتلى عليكم، وتسمعون ما كان يُقرأ عليكم منها ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ فكنتم ترجعون مولين عنها حين سماعها، فإذا سمعتموها تُقْرأ عليكم، تقهقرتم إلى الخلف، كراهة منكم أن تسمعوها. فتتقهقرون وترجعون عن التصديق والإيمان بها. فوصف عَزَّ وجل حالتهم وهيئتهم حين سماعهم لآياته تُتلى عليهم بأنهم يتولون عنها إلى الخلف، إذ كانوا من شدة بغضهم لسماع آيات القرآن الكريم التي كانت تتلى عليهم أن رجوعهم لم يكن استدارة للاتجاه الذي أتوا منه، بل كانوا يعودون على أعقابهم، وهي مؤخرة أقدامهم رجوعاً إلى الخلف، الذي هو النكوص. مما يدل على شدة كراهيتهم سماع آيات القرآن الكريم، وخشية أن يراهم أحد وهم يتولون. كما يفيد ذلك أن إتيانهم لم يكن لسماع القرآن. بل إذا تفاجؤوا بسماعه يتقهقرون إلى الخلف، تمنعاً عن الاستماع إليه، من شدة بغضهم وكرههم.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما كانوا يستكبرون به على الحق ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ مستكبرين ومتعالين ومفاخرين بِحَرَمِ الله تعالى ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ يقولون: لا يظهر علينا أحد، لأنا أهل الحرم[1] نحن أهل البيت وأهل الحرم، وولاته، فلا نخاف أحداً. وتتسامرون في البيت العتيق ﴿سَٰمِرًا﴾ بمعنى السُمَّار، وهو الاجتماع للحديث وقت الليل. أي: تسمرون ليلاً في وقت السمر، حيث يسمرون في الحرم ليلاً على وصف القرآن العظيم والرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يليق من الوصف والصد والهجران ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي: بالصد والقطيعة. فتهجرون كتاب الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم، وتهجرون الحق، وتشتغلون باللغو والهذيان، فتقولون في رسوله صلى الله عليه وسلم ما ليس فيه من الكذب والبهتان، ولن يضره ذلك منكم. فكان حالكم مع آيات الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم على هذا المسلك الفاسد الذي أغمرتم أنفسكم به. فصددتم به عن الحق الذي جاءكم به رسولنا صلى الله عليه وسلم. مما يدل على استكبارهم على غيرهم بغير الحق، بسبب زعمهم أنهم أهل الحرم الذي لا يظهر عليهم فيه أحد، مما يفيد أنهم يرون في رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهوراً عليهم، فيكفرون به من أجل أن تبقى السيادة لهم وحدهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٠/١٧)

فقط، مهما كان الحق واضحاً وجلياً لهم. وأنهم يتسامرون فيه بالقول السيء، والتكالب على رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى آيات وحجج الله تعالى من القرآن العظيم وغيره.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾

بعد تأنيبهم وتوبيخهم بما كان من غمرتهم في الضلال، وتيئيسهم من النجاة، يُظهر ويكشف الله سبحانه وتعالى علل تماديهم في الكفر، وبأسلوب السؤال التوبيخي عن الذي أدى بهم إلى الحال التي أوصلتهم إلى حلول العذاب بهم، وهي أربع أسباب متتالية، وخامسها مفصول بآية إثبات فساد أهوائهم: فقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فالسبب الأول، هو: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ أفلم يتدبروا القرآن، فيعرفوا ما فيه من العبر والحجج والدلالات على صدق رسولهم صلى الله عليه وسلم. فالمقصود بالقول ﴿يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ هو القرآن العظيم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وسُمِّيَ القرآن قولاً لأنهم خُوطِبُوا به[١] فلو أنهم استمعوا للقرآن الكريم بتدبر لحصل منهم التصديق بما جاءهم من الحق، فآمنوا، وكانوا مع المؤمنين. مما يبين أن من تدبر القرآن حصل له الإيمان، إلا أن يتكبر عما تقرر له من الحق. لأن قوة حججه وبراهينه، وبراعة بيانه تُوجب الإيمان لمن تدبره، بما يمنعه من الكفر، لما فيه من قوة الحجج والبراهين التي تُرغم المتدبر إلى اليقين به، فإنه كتاب الله تعالى، وأن الْمُرْسَل به هو نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهو سؤال يستقبح ما كان منهم من الامتناع عن تدبر القرآن العظيم﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ فقد ورد البيان بصيغة السؤال الاستنكاري التوبيخي لصنيعهم من الامتناع. وقد ابتدأت الآية الكريمة بحرف الاستفهام ﴿ أَفَلَمْ ﴾ المسبوق بالهمز، التي مفادها الإنكار عليهم من عدم التدبر. أفلم يكن منهم إعمال عقولهم في دلالاته وشواهده وقصصه وأخباره وأحكامه، وقوة وبلاغة بيانه.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/١٢)

والسبب الثاني هو: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أو أنهم استنكروا الرسالة والرسول التي لم تحصل لآبائهم، فلا عهد لآبائهم بما جاءهم، فأنكروه بسبب ذلك. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم، فاستنكروا ذلك، وأعرضوا؟ فقد جاءت الرسل من قبلهم، وأُنزِلَت معهم الكتب. وقد يحتمل أن تكون ﴿أَمۡ﴾ في هذا الموضع بمعنى **(بل)** فيكون تأويل الكلام: أفلم يدبروا القول؟ بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فتركوا لذلك التدبر، وأعرضوا عنه[1] فجاء السياق بما يحقق الوجهين اللذين يعبران عن منطوق حال السبب الذي جعلهم لا يؤمنون. أليس الأنبياء قد أُرسلوا إلى أممهم كما أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً. فهو سؤال استنطاق للحق الذي يتجاهلونه من حيث حقيقة الرسالة والرسول والكتب التي نزلت من عند الله تعالى فيمن سبقهم من الأمم. بما يفيد التوبيخ لهم من عدم الاكتراث بذلك، والتأمل والتدبر الذي يفضي إلى الإيمان، لقوة حجج وبراهين القرآن الكريم.

والسبب الثالث، هو: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ سؤال استنكار عن تجاهلهم لرسولهم الذي يعرفونه حق المعرفة. فقد عرفوا صدقه وأمانته، ونَسَبَهُ منذ أن كان صغيراً. أفلم يعرف هؤلاء المكذبون رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو منهم، وأنه معروف بمكارم الأخلاق، ومن الصدق والأمانة. ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ فهل الذي منعهم من اتباع الحق هو جهلهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأنكروه على أساس أنه غير معروف عندهم، فكان مجهولاً لديهم؟ وهم لا يقرون بجهلهم لرسولهم. فإذاً فما المانع من الاستماع إلى ماء جاءهم به؟ فلوا استمعوا له لآمنوا وصدقوا. مما يدل على أن المانع لهم هو غير ذلك، هو الكبرياء، والحسد، والاستكبار عن اتباع رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا مناقشة للحجج التي عارضوها بالضد والمناكفة والجحود. ولكن حالهم هو حال من أوجد واخترع لنفسه الأسباب التي يتمنعون بها، من أجل أن يبرروا لأنفسهم ولغيرهم بما يصدهم عما يكرهون من الحق، الذي يرون فيه سلب السيادة منهم، وتعاليهم بسبب الكبر والبطر على الحق.

ففي هذا البيان الرباني رد ودحر للعلل التي يمكن أن تكون مثار أسباب غير صحيحة. ففي هذا ابطال لحججهم فيما لو قالوا بها. مما يُعَلِّم الناس أن هذا الدين هو دين حقائق، كما يُعَلِّم هذا الأسلوب الرباني كيف يحرر المدافع دفاعاته عند مواجهة الخصم، ومواجهة الباطل، وكيف يُبطل الحجج الواهية. ومن جميل البيان استخدام ﴿أَمۡ﴾ وتصدرها مطلع كل سؤال، ليعطي دقة وجمالاً في الأسلوب الانتقالي، إذ ينتقل به من استفهام إلى استفهام آخر، في تعدد من الانتقالات.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٧/١٧)

والسبب الرابع من الأسباب الباطلة هو: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ أو هل يقولون بأن رسولهم مجنون. والمجنون لا يُسمع منه، ولا يُؤخذ بكلامه ومنطوقه؟ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ أيكون إصرارهم على الكفر هو بسبب اتهامهم لمحمد صلى الله عليه وسلم بالجنون؟ وهو قول للمشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم. فإن الأمر غير ذلك من الحسبان المختلق منهم على رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ وهذا نفي قاطع لدلالة ما سبق من تهمتهم له الجنون، وكذلك نفي من أن عدم إيمانهم قائم على ما لم يأت آباءهم الأولين. فقد أفاد حرف ﴿ بَلْ ﴾ نفي ما قبله، وتقرير وإثبات وتأكيد ما بعده من البيان، فليس الأمر كما زعموا، سواء من الجنون، أو أنه قد أتاهم بما لم يأت آباءهم الأولين. وهم يعلمون حق اليقين بطلان ما يقولونه من افتراءات ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق، الذي لا يخفى صدقه وصحته، لأنه الحق، الظاهر، والبائن صدقه وسلامته وصحته. لأنه من الله تعالى.

ثم يبين سبحانه وتعالى حقيقة كفر من كفر، بأنه بسبب الكره، وليس بسبب آخر من تلك الأسباب ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ فهذا الكره أبطل كل سبب يمكن أن يكون. فإن سبب كفرهم هو كرههم أن يكون محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً، وكرهاً وحسداً من أن يكونوا تَبَعاً له، وكرهاً أن تذهب سيادة البيت الحرام من أيديهم، وما يتسلطون به على غيرهم. فالحسد والبغي والطغيان هو الذي ولَّد لديهم الكره لمحمد صلى الله عليه وسلم ولدينه ولرسالته. مما يبين مخاطر الحسد والبغي، فإنه يجر الإنسان إلى اختلاق الأكاذيب، والادعاء بما يأمل به الفاسد والمكابر تحقيق الباطل وإثباته، وإبطال الحق والصواب. فإنه طريق الانجراف في كل شأن باطل، فإذا كان هذا أثره عليهم في الدين، فكيف يكون أثره على ما هو دون الدين من المعاملات بين الناس. مما يعلم الإنسان ويكشف له أهمية معالجة البطر والحسد والاستعلاء عند ظهوره في خلجات النفس، فإنه شر على الإنسان، إذ يؤدي به إلى المهالك.

ثم يبين ويوضح تبارك تعالى أن أهواء هؤلاء الكفرة المشركين مخالفة للحق الذي يمنع الظلم والجور، ليقرر في سياق انتقالي أنه لو عُمِل بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى فساد أهوائهم، وما انطوت عليه من الظلم والجور ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ

﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ فلو أن الله سبحانه وتعالى اتبع مرادهم فيما يفعل. فَنُظِم الحق وفق أهوائهم ومرادهم لفسدت السماوات والأرض ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لفسد تدبير شأن السماوات والأرض ومن فيهما من المخلوقات، لما في أهوائهم من الفساد والباطل الذي يجعل الحياة والكون في اضطراب من شدة فساد منهج أهوائهم المبنية على الكبر والظلم والاستعلاء، والجور الذي تمتنع معه الحياة الصحيحة الحقيقية ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ مما يبين رحمة الله تعالى، بأن جعل الحق وفق حكمه المبني على العدل، والرحمة، والجزاء العادل، والعبادة الصحيحة لخالقهم، وليس لأحد من المخلوقين، لما في هؤلاء من البطر والجشع والاستعلاء، والجهل المظلم بالباطل والفساد الذي لا تستقيم معه الحياة، بل لا يستقيم الكون كله معه.

كما يفيد هذا البيان من الله تعالى بطلان وانتفاء الشريك الذي يزعمونه، فلو كان معه شريك من المخلوقات، وفق أهوائهم الباطلة لحصل الاضطراب في الكون كله. وبالتالي لو كان الحق مُسْنَد لعقول هؤلاء الكفرة المشركين، بحيث يتوافق مع مقاصدهم ومرادهم الفاسد؛ لفسد الكون كله، من السماوات والأرض ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات التي في السماوات والأرض.

ولكن أتيناهم بالمنهج العدل، الذي هو القرآن العظيم ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بل أتيناهم بالقرآن الكريم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: بما فيه شرفهم وفخرهم، وهو القرآن ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: قد تولوا عما جاءهم من شرف الدنيا والآخرة[1] فلو اتبعوه لأثبت ذكرهم وفخرهم وشرفهم، فكان الأولى أخذه والتمسك به. ولذلك كان اتباع القرآن شرف وذكر للرعيل الأول من الصحابة وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو مرصود لهم في الدنيا بالفخر المتتابع من جيل إلى جيل، فلا ينقطع أبداً، فضلاً عما ينالونه في الآخرة من عظيم الفضل والجزاء، وسابقة الإيمان والطاعة. ولكن أعرض من كفر منهم عن هذا الفخر العظيم ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ ولكنهم أعرضوا ونكصوا عن الذكر الذي أُنزل عليهم، وهو القرآن العظيم، فخسروا بذلك الذكر الحسن لهم، بسبب استكبارهم على الحق. فضاعوا وأضاعوا أنفسهم، وخرجوا بذلك إلى الهلاك والدمار، وسوء الذكر لهم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى السبب الخامس، من الاحتمال المانع لهم عن الإيمان. والذي هو منتفي عن أن يكون من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أو أن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٣٠)

الذي منعهم من التصديق والإيمان هو سؤال رسولنا لهم مالاً وأجراً على دعوته لهم؟ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا﴾

وبدأ السؤال الاستنكاري بحرف ﴿أَمۡ﴾ لإفادة الانتقال إلى سؤال واستفهام آخر. والسؤال استنكاري، يفيد النفي من أن دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم مشوبة بشيء من أطماع الدنيا. أي: ما سألهم خرجاً، ليعتذروا ويعرضوا عن دينه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهو السؤال الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الفرض، فيما إن كانوا يزعمون بهتاناً وظلماً، فيتهمونه عليه الصلاة والسلام بذلك الافتراء الذي يمنعهم من التصديق والإيمان. وهو سؤال يتقرر به النفي للمانع الذي لم يكن من رسوله صلى الله عليه وسلم بأن طلب ذلك منهم. وفي نفس الوقت هم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلب منهم مالاً ولا ثمناً على ما يدعوهم إليه. والخرج هو الأجر. وهو سؤال على سبيل التهكم والسخرية لهم على امتناعهم عن الإسلام. بما يفيد أنه أتاكم بالخير في الدنيا والآخرة، من غير أن يطلب منكم عِوضاً على ذلك. في حين أنه لو طلب عوضاً على أن يُكتب لكم الذكر، وتُنقَذُون من النار لكان واجب على العقل دفعه. وهو لم يطلب أصلاً منكم خرجاً على إيصال الخير لكم.

ثم يقرر سبحانه وتعالى بأن رسوله صلى الله عليه وسلم يدرك موقع الأجر الحقيقي الذي يطلبه بأنه عند الله الغني المغني الكريم ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ أي: ما يعطي الله تبارك وتعالى من الرزق والثواب أيها النبي لك هو ﴿خَيۡرٞ﴾ وهي كلمة مستوفية لجميع أنواعه ومقاديره، في الدنيا والآخرة. مما يفيد ويُعَلِّم المؤمن أن ينظر إلى خراج ربه تبارك وتعالى في أعماله وعباداته، وصبره وشكره، وجميع شؤونه. ففي ذلك تربية للنفس على الإخلاص لله تعالى، ولا سيما في إعطاء العلم، وفي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي جميع أوجه الخير. لأن الله تعالى هو خير من يرزق ويعطي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن الله تعالى هو خير من يمد ويعطي من الأرزاق، فليس هناك رزق خير وأفضل من رزق الله تعالى وعطائه، فهو الخير والبركة. وهي جملة تؤكد وتقرر الجملة السابقة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ فخراج الله تعالى من الرزق هو الخير الحقيقي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وهو خير من يرزق ويعطي، فليس هناك من هو أخير منه عَزَّ في علاه. وفي هذا كمال الثناء على الله تعالى، بما عنده من سعة العطاء والرزق والإثابة.

ثم يقرر عَزَّ وجل حقيقة دعوته صلى الله عليه وسلم التي بُعِث بها ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فإنك أيها الرسول إنما تدعوهم إلى دين قويم، وهو دين الإسلام. فانتفى بذلك كل نقص وعيب في دعوته عليه الصلاة والسلام، وفي جميع تشريع الله تعالى، فقد خَلُص إلى الكمال في كل شيء، سواء في

الأسلوب، أو في التشريع والأحكام والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، بل عين الكمال في كل شيء. فدعوتك لهم هو طريق ومسلك ومنهج واضح وقويم، يبين الطريق الصحيح الذي يُوصِل للمراد المطلوب، والنهاية السعيدة، التي لا تتعارض مع العقول الصحيحة، بل تشهد لما تدعوهم إليه بالاستقامة والسلامة، وهو الإسلام.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

بعد أن نَزَّه اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن مفتريات المكذبين الكافرين، وإثبات ما هو ضد افترائهم، يخبر الله تعالى بعلة وهيئة وحال من لا يؤمن بالآخرة. وما هم فيه من الانكباب والانحدار عن الصراط المستقيم إلى غيره من طرق الضلال والاعوجاج ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ فالذين لا يؤمنون باليوم الآخر منحدرون عن الحق والصواب إلى الشطط والزيغ والهلاك. لأن الإيمان باليوم الآخر متضمن للتصديق بالبعث والحساب والجزاء، فإن هؤلاء المكذبين باليوم الآخر ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ مائلون عن الحق والصواب، فأصبحوا في انحراف جائر. فكلمة ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ تفيد الميل والشطط والعدول عن الأصل الذي هو الحق إلى غيره من الأضداد. ومنه نكب عن الطريق إذا زاغ عنه. فهؤلاء المتصفون بعدم الإيمان بالآخرة فإنهم زائغون عن الحق، فانحرفوا انحرافاً جائراً عن طريق الصواب إلى طرق الضلال المظلم، الذي تفضي بهم إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة. فخرجوا عن الطريق المفضي إلى الجنة، ودخلوا في الطرق الموصلة إلى النار. مما يفيد أن الإيمان باليوم الآخر ضابط للفكر، وضابط للاتجاه، وضابط للسلوك والأخلاق. لأن المؤمن باليوم الآخر يُدرك أنه محاسب على جميع تصرفاته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شدة عنادهم وتمردهم، وتوغلهم في الكذب والكفر ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ فمن قسوة وفساد قلوبهم، وجورهم، أن الابتلاء أصبح غير كاف في تعديل سلوكهم، بحيث لو كشف الله تعالى ما أصابهم من الضر، فأصابتهم رحمة من ربهم، لعادوا إلى ضلالهم وكفرهم، وتمادوا في طغيانهم، وتجاوزاتهم في الضلال والعناد، فيعودوا إلى سابق ضلالهم وعماهم وذهولهم عن الحق. فهو بيان وتصوير لحالهم فيما لو استجاب الله تعالى لحال ضعفهم وانهزامهم عند عقابهم ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾ فلو رحم الله تعالى بفضله ومَنِّهِ أولئك الكفرة مما أصابهم، فرفع عنهم البلاء ﴿وَكَشَفۡنَا مَا

بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ فرفع عنهم ما حل بهم من أنواع الضر الذي حلَّ بهم ﴿ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ لتمادوا في طغيانهم وتجاوزاتهم، بما يفيد أن قلوبهم قد قست، فأصبح لا يؤثر فيها قوة المصائب. والولوج هو: الدخول في الشيء. وهنا هو التمادي في الدخول للباطل الذي لا يأتي منه الانكفاف والرجوع. واستمروا ﴿ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ ﴾ الذي هو أشد أنواع البطر والكبر والاستعلاء. وهم ﴿ يَعۡمَهُونَ ﴾ يتخبطون، ويترددون. أي: في تذبذب وتخبط، بما يفيد استمرارهم في العناد الذي منع عنهم الاتعاظ والانقياد بالرغم مما أصابهم من الضر، ثم الكشف عنهم. مما يفيد أنه لا فائدة من كشف الضر عن هؤلاء، ولا فائدة من رحمتهم. كما يبين ذلك علم الله تعالى بما سيكون من العبد قبل أن يكون منه. بل يعلم سبحانه وتعالى بحال العباد مجتمعين قبل أن يكون منهم ما يكون، سواء من التحول أو البقاء. فإن علم الله تعالى سابق للشيء قبل أن يكون. مما يفيد أهمية الاتعاظ، وأهمية أن يرضى المؤمن بما يعطيه الله تعالى له، وما يمنعه عنه، لسابق علمه بعبده، كيف يكون حاله عند إعطائه أو منعه أو تأجيله. فإن علم الله تعالى سابق للشيء قبل أن يكون.

ثم يخبر الله تعالى بما يقرر ويُثْبِت علمه عما ساقه من البيان بما سيكون منهم قبل أن يكون فيما لو رحمهم، وكشف ما بهم من الضر. بأن من رحمته بهم وعدله أنه قد أخذهم بصنوف من المصائب والشدائد، لعلهم يرجعون للحق، ولكنهم لم يخضعوا لربهم تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فقد أخذهم الله تعالى بألوان وأصناف من الابتلاء الذي يُوجب منهم الانتباه والعدول عن كفرهم إلى الإيمان. قال الضحاك رحمه الله تعالى عن ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ ﴾: بالجوع. وقيل: بالأمراض، والحاجة، والجوع. وقيل: بالقتل، والجوع(١) قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والتعريف في قوله تعالى ﴿ بِٱلۡعَذَابِ ﴾ للعهد، أي بالعذاب المذكور آنفاً(٢) فكون العذاب قد ورد بتعريفه بأل، ما يفيد بأن المقصود بالعذاب من حيث الوقت أنه قد حصل قريباً لهم، فلم يكن فيه بُعْدٌ زمني بحيث ينسونه، بل قريبين عهد بما أصابهم من الابتلاء المتنوع، ومع ذلك ﴿ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ ﴾ أي: ما خضعوا وتذللوا لربهم سبحانه وتعالى بالانقياد لأمره ونهيه وشرعه، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٥/١٢)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٦/٨)

مما يفيد بقاؤهم على كفرهم وتمردهم وعنادهم، فلم ينتفعوا ويتعظوا بما أصابهم من المحن والابتلاء ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فلا يتذللون بالدعاء، ولا يخشعون لله تعالى مما أصابهم من الشدائد، فلا يدعونه، ويخبتون له، ويتذللون لربهم، وذلك لقوة كفرهم، وصلابة قلوبهم، وانطوائها على الكفر والتكبر والعناد. مما يفيد أنه لا تتوقعوا أنه في حال رفع العذاب عنهم أن تحصل منهم التوبة والإنابة. مما يعطي دلالة على عظيم علم الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون. وأن الابتلاء رحمة من الله تعالى بالعباد، للانتباه، والعودة إليه بالتوبة والاستقامة. ولكن كثيراً من الناس لا يأبهون بالابتلاء، ولا يكترثون ولا يهتمون به. وكأنه أمر عابر. وذلك من الجهل وقسوة القلب. مما يفيد أن الله تعال يربي عباده بما يبتليهم به من البلاء والفتن، للانتباه والصحوة من الغفلة التي يكون فيها العباد. كما يفيد ذلك ويبين أن الله تعالى يحب من عبده الاستكانة والتضرع والتذلل، ولزوم الطاعة والانقياد لشرعه الحكيم. مما يُوجِب على الإنسان الحذر من المعصية، ولزوم الطاعة والانقياد لله تعالى.

ومن دقائق أسلوب العرض وجماله وقوة استدعائه للذهن والفكر للتأمل والمتابعة للآيات الكريمة، هو أسلوب التتابع في التنقل من أسلوب لآخر، لمعالجة قضايا الإنسان في عقيدته وعبادته، وعموم مسلكه ومنهجه في الحياة. إذ شَدَّ سبحانه وتعالى استثارة الذهن فيما يتعلق بتكاليف الدين التي انتفت منها المشقة، وبيان جانب الترغيب والترهيب بأن أثبت أنه كلما يصدر عن الإنسان فإنه مسجل ومرصود في كتاب ينطق بأعمالهم، وهو اللوح المحفوظ، وصحائف العباد.

ثم ينتقل إلى بيان علة عدم التدبر والتفكر، بأنه بسبب انغمار القلوب في الباطل عن كتابه الكريم، الذي يهذب ويصحح مفاهيمهم للحياة، ويخرجهم من ظلمة باطلهم إلى نور الحق والرشاد، مع التنويه والإشارة إلى انغمارهم وانغماسهم في أعمالهم الكفرية الرديئة المتنوعة. ثم ينتقل الأسلوب إلى التنويه عما أصابهم من الابتلاء بالمحن لعلهم يرجعون، وما كان منهم من الصياح والعويل. ثم ينتقل البيان الكريم إلى التذكير بما كان منهم من النكوص على أعقابهم حين سماعهم آيات الله تعالى تتلى عليهم. وما كان من حالهم من الاستكبار بشأن البيت الحرام ومقامه ومنزلته، واستخدامه للتعالي على غيرهم به، وما كانوا فيه من السمر بالباطل، بما يتمكنون به من محاربة رسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه الكريم.

ثم ينتقل الأسلوب في الآيات الكريمة إلى نفي العلل والأسباب التي يتمنعون بها عن الطاعة، بأسلوب السؤال الذي يستظهر ما في قلوبهم وعقولهم، وبما ينمي فكر التالي والسامع لآياته سبحانه وتعالى، ويكشف بطلان العلل. ليتدرج الأسلوب في انتقال بديع إلى ما يريدون أن يكون عليه دين الله تعالى. فلو أن الحق اتبع أهواءهم لفسدت السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات، وذلك لجورهم واستكبارهم، وفساد عقولهم وتفكيرهم في معالجة أمورهم. ثم يعود بهم الأسلوب القرآني الكريم إلى سبب غير موجود أصلاً، بأن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لم يطلبهم أجراً على اتباع دعوته، والتي فحواها وهدفها والمراد منها هو إخراجهم من ظلام الكفر إلى نور الإسلام الذي ينجون به من العذاب المستديم. وكأنه فيما لو طلب منهم ذلك من أجل نجاتهم لاستوجب

عليهم الاستجابة لمطلبه صلى الله عليه وسلم. فإن العاقل يستوجب ذلك على نفسه من أجل نجاته، ومع ذلك لم يطالبكم بشيء مقابل نجاتكم. فكيف وهو يدعوكم من غير طلب.

ثم ينتقل الأسلوب الكريم في تتابع جميل وعظيم إلى بيان دعوته لهم صلى الله عليه وسلم، بأنه يدعوهم إلى صراط مستقيم، لا ترى فيه شيئاً من الاعوجاج والخلل. ثم ينتقل الأسلوب إلى بيان فيما لو أن الله تعالى رحمهم باستجابة صراخهم وعويلهم مما أصابهم، فإنهم عائدون مباشرة لطغيانهم، وأنهم لن يتضرعوا، ولن يكون منهم ما يجب. وهكذا سارت الآيات الكريمة في انتقال من أسلوب إلى أسلوب في تتابع يستثير الذهن نحو المتابعة لآياته الكريمة. وهذا هو نهج القرآن الكريم كله. ففي أسلوب تتابعه وتنقله آيات إعجاز عظيمة. ثم تستكمل الآيات التنقل التتابعي كما هو قادم من الغرض.

ثم يخبر الله تعالى من أنهم مستمرون في كفرهم وعنادهم حتى يُفتح عليهم باباً من العذاب، فيكون حالهم حال الساكت الحائر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ حتى إذا وردهم أمر الله تعالى، بأن فتح عليهم باباً واحداً من عذابه الشديد، وهو يوم القيامة، وقيل يوم بدر ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ فعند ذلك يكونوا قد أبلسوا من كل خير، أي يئسوا، وخمدت آمالهم، وانقطع رجاؤهم من كل خير. ذكر القرطبي رحمه الله تعالى أنه: قال عكرمة: هو باب من أبواب جهنم. وذكر كذلك رحمه الله تعالى قول ابن عباس رضي الله عنهما: هو قتلهم بالسيف يوم بدر[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: حتى إذا جاءهم أمر الله تعالى، وجاءتهم الساعة بغتة، وأخذهم من عذاب الله تعالى ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك ابلسوا من كل خير[٢] ولا يمنع أن كلا الوجهين متحقق بها المفاجأة بما لم يكونوا يحتسبون، فيحصل لهم اليأس عند تحصيل ذلك العذاب من القتل أو عذاب النار يوم القيامة.

ومن جميل السياق البياني أن البيان ورد بأسلوب المفاجأة لقيام الساعة وتحصيلهم العذاب، أو القتل يوم بدر. حيث ورد مطلع البيان الكريم بجملة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ﴾ لتفيد المفاجأة، بعد أن استمروا في كفرهم وعنادهم، ولم يتعظوا بما أصابهم من الابتلاء والمصائب التي تنبههم بما هم فيه من الكفر برسولهم ونبيهم، وبما جاءهم به من الحق المبين صلى الله عليه وسلم، ولم يتعظوا، ولم يتذللوا لربهم ويتوبوا إليه حتى تفاجؤوا بقيام الساعة، وأخذهم عقاب الله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴾ ففتح الله تعالى عليهم باباً واحداً، فكان عذاباً شديداً، فكيف لو فتح عليهم أبواباً كثيرة من ذلك، ليدل على تعظيم وهول وعظمة عذاب الله

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٩٥-٩٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٦٢)

تعالى. وبما يفيد التحذير والتهديد، والوعظ بالترهيب، فكان حالهم حين وقع بهم ذلك ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ فحينها أحسوا بانقطاع الأمل والرجاء لتحصيل الحق. والإبلاس من كلمة ﴿مُبْلِسُونَ ﴾ هو شدة اليأس بانقطاع الرجاء. مما يفيد أن هذه الدنيا هي المكان لتحصيل وجمع الخير، وأما الآخرة فهي دار حساب وجزاء، وتحصيل كل نفس لما كسبت في دنياها من خير وشر، فاعتبروا إيها الناس بغيركم. فإنها موعظة عظيمة وجليلة من رب رحيم. فيبين ويعظ بكتابه القرآن العظيم جميع عباده بكل وجه من أوجه الوعظ والتحذير والترغيب. فله الحمد والشكر سبحانه وتعالى.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يذكر الله سبحانه وتعالى لعباده ما امتن به عليهم من النعم والخير الذي يستوجب منهم الشكر والطاعة لخالقهم، واتباع ما أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي تفضل عليكم أيها الناس بالإنشاء، وأكرمكم بحاسة السمع والبصر والقلوب، مما يلزمكم الشكر الذي يستوجب عليكم إزاء هذه النعمة.

فتبين وتوضح الآية الكريمة وحدانية الله تعالى في الخلق والإنشاء، إذ استهل مطلعها بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ ﴾ ليفيد الحصر والقصر لما بعده، بأن له وحده لا شريك له هذا الخلق والإيجاد، وليس لغيره فيه شيء. فإن خلقكم، وإيجادكم له وحده سبحانه وتعالى، لا شريك له ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ﴾ بالخلق والإيجاد، وفق الأطوار والمراحل التي بينها فيما سبق من هذه السورة المباركة. ومن ذلك السمع والبصر والقلو.

والإنشاء هو: الإيجاد والإحداث للشيء من جديد، ومن غير سابق له. ثم بعد تعميم امتنانه سبحانه وتعالى بعموم الإنشاء لجنس الإنسان، يُظهر ويخص سبحانه وتعالى ثلاث مكونات من هذا الإنسان بالذكر من بين غيرها من أجزاء هذا الإنسان، وذلك لشد الانتباه إليها بالتدبر والتأمل، ورؤية دقة وعظمة خلق الله تعالى. فتخصيصها بالذكر هو لإبراز وإظهار ما يشد انتباههم وفكرهم إلى دقائق هذه الحواس العظيمة ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾ فبدأ عَزَّ وجل بذكر آلة السمع وحاسته الصوتية ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ ﴾

فبحاسة السمع تسمعون جميع أنواع الأصوات التي تنتفعون بها في الفهم والإدراك والتعلم، واتخاذ القرار، وتدركون بها ما ينفعكم، وما يضركم. ثم ذكر سبحانه وتعالى امتنانه بحاسة البصر ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ التي يبصر بها الإنسان الذي أمامه، على تعدد وتنوع الْمُبْصَرَات التي ينظر إليها، فيجمعها البصر ويحتويها في أشكالها التي هي عليه كما هي في الحقيقة. فإنها نعمة عظيمة جليلة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نعمة الأفئدة التي تمثل القلب ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ فالأفئدة، هي القلوب، التي هي محط التعقل والتحليل والاستنتاج والتفكير. وهي مجمع العواطف من الحب والكره والبغض، والميل والانصراف، وفيها يقع الخوف والطمأنينة، والرغبة والرهبة. وهي التي يُفضي إليها السمع بما سمع، والبصر بما رأى، ليكون منها القرار. فهي محطة وميدان التفكير والتأمل. فهي نعمة عظيمة جليلة.

ومن جليل دقائق البيان أن ورد السمع مفرداً ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ بينما ورد البصر والفؤاد بصيغة الجمع ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى أنه قيل: الجمع باعتبار المتعلقات، فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات، وكانت العقول تدرك أجناساً وأنواعاً، جُمِعَا بهذا الاعتبار. وأُفرِد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات(١) ومما تم ذكره عن ذلك في سورة يونس: فإن المتأمل يجد عمق المعاني وعمق الدلالات التي يحملها هذا السياق، فمن حيث اللغة: أن السمع مصدر، والمصدر لا يُجمع، أما الأبصار فاسم، ليفيد التغاير بينهما في التحكم وفي الاستعمال، فالسمع حاسة لا يستطيع الإنسان أن يختار أو يمنع ما يسمع تلقائياً، فكأنه آلة واحدة، فلا يسمع بها تفاصيل الأصوات إذا اختلطت على السامع، فإن تداخل الأصوات يمنع السامع من توجيه السمع لأحد هذه الأصوات دون غيرها من الأصوات، ليفرده بالاستماع، وبالتالي أصبح السمع كأنه آلة واحدة مفردة. بينما البصر يستطيع الإنسان أن يحركه يمنة ويسرة، ويستطيع أن يحدق بعينه في شيء معين دون غيره، ويتنقل به بين المرئيات، فينظر به هنا وهناك. وكذلك الأفئدة، يستطيع أن ينشغل بأمر، وينتقل إلى أمر آخر، وثالث ورابع، ثم يعود للأول، أو الثالث، أو الثاني، وقد يربط بين بعضها، وقد يُقصي منها ما يريد، فلسعة مساحتها كانت في السياق على سبيل الجمع. وهذا من الإبداع والإعجاز في البيان، وفي علل المفارقات بين صياغة الألفاظ. فسبحان من أظهر الإعجاز في بيانه الجليل العظيم.

فأبانت الآية الكريمة عظمة الله عَزَّ وجل في سياق بيانه، وفي إبداعه، وعظمته في خلقه،. بما يدل ويبين ويُظهر انفراده سبحانه وتعالى بالإنشاء والتدبير الذي قد تعاظم وتعالت فيه دقائق خلقه سبحانه وتعالى، والتي أظهرها وأبانها عَزَّ وجل في الإنسان، من خلال ما خلق من السمع والبصر والأفئدة وغيرها من أجزاء

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٩/٨)

مكونات جسم الإنسان، مما يتطلب إفراده بما هو أهل له من العبادة، لا بما أشركتم به، مما هو عاجز عن نفسه، فضلاً عن تدبير شأن وأمر غيره.

وخص تبارك وتعالى هذه الحواس الثلاث من بين غيرها من أجزاء جسم الإنسان لما فيها من عظيم الدلالات، التي لو تأملها الإنسان في علاقتها ببعضها البعض، أو تأملها منفردة، لاهتدى إلى الحق مباشرة، لِمَا لكل واحدة منها من الخصائص والفوائد والإنعام العظيم الذي يعجز عن إحصائها وحصرها الإنسان. ولو تأمل في العلاقة بينها وبين المحسوسات لأبهرته تلك العلاقة التي استوعبت كل حاسة فيها بما يناسبها من المحسوسات، ولو ربط العلاقة بين الحاسة ونوع المحسوس بها لوجد عظمة قيمة ذلك الترابط بما تحدثه له من جليل الإنعام. فموقع الفؤاد هو موقع المحلل والمستنتج لما يسمع ويرى الإنسان، ليقرر المناسب لما سمع أو رأى من المسموعات والأصوات. فالقلب هو محل التفاعل مع الأشياء بعد إدراكها بحاسة السمع وحاسة البصر، وبقية الحواس. لأن مركز العقل هو القلب، كما قال به جمع من العلماء، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والأفئدة هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء، ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج، قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيد في سمعه وبصره وعقله، حتى يبلغ أشده[١] فالعقل هو مركز تحليل ما يأتي عن الحواس، ليصدر التوجه من خلاله، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢] والعلاقة بين الدماغ والقلب هي علاقة تواصل، فالدماغ مخزن للملكات، كملكة الحفظ والتذكر، وغيرها، والقلب هو الذي يعقل به الإنسان الأشياء، وهو محطة الارتكاز، وهو مجمع العواطف والقرارات.

ومع كثرة هذه النعم، وتعدد أوجه فوائدها فإن الإنسان يقابلها بالقليل من الشكر ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما أقل شكركم لله تعالى على ما أنعم به عليكم[٣] فما تشكرون إلا شكراً قليلاً. وقيل: لا تشكرون البتة[٤] لا تذكرون ربكم سبحانه وتعالى إلا قليلاً، مقابل ما أنعم به عليكم، فاكتسب الذكر منهم صفة التقليل والتحقير الذي لا قيمة له، مقابل هذا الإنعام، الذي لا يتناسب مع النعمة والتفضل من ربكم الذي أنتم فيه. والشكر يشمل دلالة الحمد باللسان، والشكر بالعمل والطاعة والامتثال لله تعالى، وكذلك الشكر بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم بأن كل النعم هي من عطاء الله تعالى، فلا شريك له فيما أنعم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠٠-٦٠١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٤) برقم (٥٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٦٢)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٩٦)

وباعتبار مجمل سياق الآية فإن جملة ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تأتي بدلالة أنكم لا تقرون إلا بالقليل من آيات الله تعالى أيها المشركون، كالإيمان بخلق السماوات والأرض، وتجحدون الكثير من آيات الله تعالى التي منها السمع والأبصار والأفئدة التي يوجب شكرها التصديق والإيمان بالرسول والقرآن والطاعة لله تعالى فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، ويبينه لكم من شرعه سبحانه وتعالى. فواجبكم أمام هذه الآيات والحجج من النعم هو الشكر بالطاعة، ونفي الشريك.

وتأتي بمعنى: ما تشكرون حتى الشكر القليل، فإنه لا يكون منكم. وهي الدلالة الأظهر مع حالة المشركين، والكافرين عموماً كما ذكر القرطبي سابقاً: لا تشكرون البتة. فينفي عنهم الشكر أصلاً سبحانه وتعالى. وأما باعتبار جنس الإنسان، حيث منهم المؤمن ومنهم الكافر، فيكون ما أقل شكركم لله ربكم أيها الناس على ما أنعم به عليكم. وهذا على اعتبار أن الشاكرين هم المؤمنون، وهم الأقل عدداً من الكافرين. والكافرون هم الأكثر، فمثلوا عدم الشكر من بين جنس الإنسان، والمؤمنون يمثلون القليل الشاكر من عموم جنس الإنسان. وهذا من بديع أوجه البيان، وغزارة دلالاته التي تدل على وجه من أوجه إعجازه سبحانه وتعالى في كتابه العظيم. وفي هذا حث وتحريض على الشكر، بالقول والامتثال والعمل بالطاعة له سبحانه وتعالى.

ثم يذكر سبحانه وتعالى وجهاً آخر من عظيم قدرته، وعظيم امتنانه، وجلال تدبيره، بنشر جنس الإنسان في الأرض ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فهو لا غيره ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ بإيجاده لكم على وجه الأرض، فليس لغيره شراكة في الخلق والإيجاد والنشر لكم في أرجاء المعمورة. بما ينفي به الشرك الذي عليه المشركون. وأن من إنعامه عليكم الدالة على عظيم قدرته ووحدانيته سبحانه وتعال أنه بثكم ونشركم بالتناسل في أقطار الأرض. والذرء في قوله تعالى ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ هو الخلق والإيجاد على وجه الكثرة والاختراع الذي ليس له سابق ولا مثيل. مما يفيد ويقطع بأن جنس الإنسان ليس له مثيل سابق قبله. كما أن من عظيم قدرته جَلَّ جلاله أن جعل هذا النشر في أرجاء الأرض، فإن في ذلك آية من آيات الله تعالى العظيمة، الدالة على أنه الخالق المدبر، والذي لا يُعبد سواه. كما قصرت وحصرت الآية الكريمة بأسلوبها الدقيق هذا الخلق على لله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فليس لغيره شراكة في الخلق والإيجاد والنشر لكم في أرجاء الأرض. مما ينفي به الشرك الذي عليه المشركون.

ومن فوائد هذا التكثير والنشر في الأرض، أنه يتحقق به التعارف بين الناس، ويتحقق به التعاون، ونقل المعرفة، والخبرات، والإنتاج، بالتجارة والنقل والتنقل، ويحصل به الإفادة العظيمة من بعضكم البعض. فقد تمكن الإنسان بهذا الانتشار والتوزيع من استغلال خيرات وثروات الأرض المتنوعة، والمبثوثة في أرجائها.

ثم بعد الإيجاد والتكاثر وعمارتكم للأرض في مختلف أنحائها، فإنه إليه عَزَّ وجل تحشرون بعد الموت والفناء ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: تُجمعون للجزاء، وذلك بأن يجمع الله تعالى الأولين والآخرين من قبورهم ليوم الحشر، فَيُجْمَعُون إلى ربهم سبحانه وتعالى، لموقف الحساب والجزاء. ومن دقائق البيان أنه لم يسم الفاعل الذي يقوم بحشرهم إليه سبحانه وتعالى ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وذلك لتعظيم الموقف، ولإبراز وإظهار يوم الحشر كواعظ وأنه نتيجة أنتم قادمون إليها أيها الناس لا محالة. وهو من الأساليب البيانية حين يُراد اشغال الذهن بالفعل عن الفاعل.

وبعد أن ذكر جَلَّ في علاه قضية الحشر المتعلقة بالإحياء بعد الموت، ينتقل البيان إلى الاستدلال على الإحياء والإماتة، ثم الإحياء والبعث مرة أخرى بنفس أداة الحصر والقصر السابقة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ﴾ مع ربطها بملكيته سبحانه وتعالى لِسُنَّة تعاقب الليل والنهار التي تشاهدونها بأنها له عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَـارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فإن من كمال قدرته جَلَّ في علاه أنه هو الذي بقدرته يحي ويُوجِد من العدم، ويميت بعد الإيجاد وحصول الحياة. فهو المتصرف في الحياة والموت وحده لا شريك له. فانتقل السياق الكريم إلى بيان كمال قدرته في الإحياء والإماتة، بنفس أداة الحصر والقصر ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ﴾ بأنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره الإحياء والإماتة، فهي خاصة به تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهو الذي أحياكم أول مرة بالإيجاد، وهو الذي يميتكم، وبالتالي كما أحياكم أول مرة، ثم أماتكم، فكذلك يحيكم من قبوركم، ثم إليه تحشرون.

فسلط سياق الآية الكريمة الإحياء والإماتة على فعلها عموماً ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ كونها فعل من أفعال الله تعالى. فإنها تفيد التصرف في الحياة والموت، ليكون وقعها في النفس أعمق في هذا البيان، مع ارتباطها بالتأكيد والاستدلال بما يرون من تعاقب الليل والنهار ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَـارِ ﴾ فله سبحانه وتعالى اختلاف الليل عن النهار، في ظلمة الليل ونور النهار، ونقصان أحدهما وزيادة ما نقص في الآخر، وذلك في عملية دقيقة ومتكاملة، وكذلك تكرارهما بالتعاقب، فكل منهما يعقب الآخر. فمن يُنْشِئ ويُغَيِّب الليل والنهار، فهو الذي يُغَيِّب الإنسان بالموت، ويعيده كما يُعيد الليل والنهار في تعاقبهما. فليس في ذلك استحالة، فكما أنه لم تكن هناك استحالة فيما ترون في آية الليل والنهار التي هي لله تعالى، فكذلك أنتم ملك لله تعالى، بأن أحياكم، ثم يميتكم، ثم يحيكم للحساب والجزاء. فهو يُسَيِّر ملكه كيف يشاء من النظام والتدبير. فإين الاستحالة وأنتم ترون هذا التعاقب بين الليل والنهار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تتدبرون، وتتفكرون،

وتستعملون عقولكم في دلالة آية تعاقب الليل والنهار. فإن في ذلك الذي تم بيانه لكم بالحقيقة والبرهان لآيات عظيمة على قدرته سبحانه وتعالى. فقد أظهر لكم ما أراد، وأخفى عنكم ما أراد من الليل والنهار. فقد خضع له خلقه خضوعاً كما ترونه في الليل والنهار. فإن في هذا السؤال ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ قوة الاستثارة والتنبيه بعد إقامة الحجة، إذ يستثير غياب الفكر عن الأدلة والحجج. وكذلك هو سؤال يستنكر به من حاد عقله عن الطريق. وهو سؤال يثبت قوة الدليل، وتمرد الكافر على الدليل. وهو سؤال يستنهض العقل ليتدبر ويتفكر. مما يفيد تعليمياً البدء بعرض الدليل أولاً، ثم استثارة التأمل والتدبر في مكنونه ثانياً. ليجعل المتعلم يُمعِن الفكر بروية وهدوء. كما يبين هذا أن منهج دين الله تعالى قائم على الحقائق التي لا ينكرها العاقل.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه على الرغم من قوة الدليل إلا أن الكافرين ابتعدوا عن الحق، آخذين بمسلك من سبقهم من الكفرة المعاندين ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ فقد كذب هؤلاء كما كذب الأولون من قبلهم بإنكارهم للبعث. فعيرهم سبحانه وتعالى بما قالوا من إنكارهم البعث، وبأنه لم يخرج عن قول من سبقهم من الذين وقع عليهم العذاب بكفرهم بأنبيائهم، وبالبعث بعد الموت. بما يفيد إصرارهم على الكفر، وإصرارهم على عدم اتباع الحق، وأنهم مكابرون. فأبطل حرف ﴿ بَلۡ ﴾ نكرانهم وتجاهلهم واعتقادهم الباطل، وما كان منهم من الجحود، بأنه نوع من الضلال. وليثبت ما يجب عليهم من التعقل والإيمان بالبعث. وقد زودهم الله تعالى بكمال العقول التي توجب منهم الإيمان. وأثبت إنكارهم للبعث كما أنكره الأولون من قبلهم. فانتقل السياق بحرف ﴿ بَلۡ ﴾ الذي هو بمعنى: ولكن. انتقل به البيان الكريم إلى إثبات النعم التي هم عليها، والتي قامت بها الحجة عليهم، وتقرير كفرهم، وعدم قبول الحق. مما يفيد خطورة التقليد من غير وعي، ولا حجة ولا دليل.

فقالوا بمثل قول السابقين لهم، من استبعاد البعث، بسؤال استنكار، مفاده التعجب من قولهم، وردهم السيء ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ فقرروا استحالة عودة الحياة للإنسان بعد أن يبلى، فيتحلل إلى تراب، وعظام نخرة، خالية مما تحي به الأجساد. فهو قول على سبيل الاستبعاد والإنكار لعودة حياة الإنسان بعد تحوله إلى تلك الحال من التراب والعظام النخرة. ﴿ أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ سؤال استنكار واستغراب. أيعقل ذلك؟ سؤال استبعاد. وهو في نفس الوقت استهجان لمنتوجهم الفكري، وما توصلوا إليه من هذا الاستبعاد، فإنه قد خلا من ربطه بالقادر الخالق سبحانه وتعالى، الذي أبان لكل مكذب ومنكر ما يُوجِب عليه الإيمان بحقيقة البعث بعد الموت. مما يفيد ويعلم الإنسان ألا يجرد إعلام الله تعالى لهم من كمال القدرة الربانية التي تجلت عظمتها في الإنسان، وفيما يحيط به من الكون. ومنها ظهور الليل بعد انعدامه، وظهور النهار بعد غيابه. فالذي أعاد الليل بعد غيابه، وأعاد النهار بعد غيابه، فإنه كذلك يعيد الإنسان بعد موته.

ثم يخبر الله تعالى بقياساتهم الفاسدة، التي ينكشف بها بطلانها. إذ يقيسون قولهم واستنتاجهم بنكران البعث على استبطائهم وعد الله تعالى بالبعث لمن تقدم من الأجيال السابقة لهم ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هذا الإنكار مُسَوّق للإنكار الذي قبله، وهو اعتقادهم بأنه لا يمكن، ويستحيل أن يكون هناك بعث بعد أن تتحول أجسادنا بعد الموت إلى تراب، وعظامنا نخرة، متآكلة، ومتباعدة عن بعضها البعض. كما أنه سبق وأن وُعِدْنَا وآباؤنا بهذا القول، فلم نر له حقيقة، فلا يعدوا أن يكون هذا إلا من الأقاويل الباطلة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: لا تعدوا أن تكون مما سطره الأولون في كتبهم من الأخبار والترهات التي لا صحة لها. لأن الأساطير تعني: الخرافات والروايات التي هدفها التسلية والتلهي ومضيعة الوقت.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ثم يعيد سبحانه وتعالى المزيد من الحقائق، والأدلة الدامغة على ترهاتهم الباطلة، وقياساتهم الفاسدة، وذلك من خلال الأسئلة التقريرية التي تقررهم بالحقيقة كما يدركونها ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وهنا يتوجه الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يضعهم أمام هذا السؤال الذي يعرفون حقيقته، ولا ينكرونها. بل لكل مؤمن أن يوجه هذا السؤال للمنكرين البعث. فاسأل هؤلاء المشركين، من يملك هذه الأرض، وجميع من فيها من المخلوقات؟ فيتصرف فيها كيف يشاء. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم تعلمون مالكها وخالقها ومدبرها فأجيبوا بما تعلمون من العلم، لأن مقتضى السؤال هو أن يجيبوا عليه. وستكون إجابتهم كما بينها الله تعالى قبل أن يجيبوا، لسابق علمه عَزَّ وجل بما سيكون منهم من القول والرد قبل أن ينطقوا بها ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: سيكون قولهم: أن الأرض

ومن فيها هي لله تعالى، لأنهم يؤمنون بالخالق، ولكن يُشركون معه غيره من الأصنام، ويكفرون بالبعث. فإذا قالوا ذلك ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فقل لهم عند ذلك: فطالما أنكم أقررتم بذلك لربكم وخالقكم من القدرة على خلق الكون ابتداء أفلا يكون قادراً على إحياء من يموت، وهو سبحانه وتعالى بكامل هذه القدرة العظيمة؟ فإنه سؤال يُلجئهم إلى الاعتراف بالحقيقة التي يدركونها. أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله تعالى به، مما هو مستقر في فطرتكم، ومعلوم ومعروف عندكم. وفي هذا تدرج بياني عظيم في إقامة الحجة، مما يُعَلِّم المؤمن منهجية الترتيب، ومنهجية التمحور حول الحقيقة، وصياغتها بما يفحم ويقرر بها الخصم، ويلجئه إلى الحقيقة. فإنها منهجية في التعليم، فضلاً عن أنها منهجية في استثارة العقل لإدراك الحقيقة بقناعة تامة، فلا يستطيع أن يحيص عنها. مما يبين أن منهج هذا الدين قائم على الحقائق الساطعة، والأدلة الدامغة، والحجج الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض.

وبعد سؤالهم عن خلق الأرض التي يعيشون عليها، وإقرارهم بربوبيتها لله تعالى، يتدرج معهم في الاستدلال إلى ما يعلوهم من السماء، وبأسلوب الحوار الملجم لهم بالحجج الداحضة، وذلك بتوجيه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يسألهم سؤالاً يقررهم بما يعرفونه ولا ينكرونه ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قل لهم أيها النبي من هو رب السماوات السبع وما فيها من الكواكب السيارة والأفلاك. وكذلك من هو ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات، وأعظمها، وأوسعها. الذي وسع السماوات والأرض. ووصفه تبارك وتعالى بالعظيم، لعظمته التي وسعت السماوات والأرض. فمن الذي خلق ذلك. فلفت السؤال انتباههم إلى العالم العلوي أولاً، وما فيه من الآيات العظيمة، من الملائكة الخاضعين العابدين لربهم، والكواكب التي لا يحصيها أحد من كثرتها. ثم لفت انتباههم ثانياً إلى سقف المخلوقات كلها، وهو العرش العظيم، الذي هو عرش الرحمن الكريم. فمن هو رب هذا العرش العظيم الذي اعتلى كل شيء من خلقه؟

ثم يقرر تبارك وتعالى ويبين ما سيقولونه لنبيه صلى الله عليه وسلم قبل أن يقولوا ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فسيعترفون، ويردون بما يعتقدون أن الله تعالى هو رب السماوات ورب العرش العظيم. فحينها يكون منك السؤال لهم ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تخافون الله ربكم، فتتقون عذابه وعقابه، وتتركون تكذيبكم لرسوله صلى الله عليه وسلم. فإن كنتم تؤمنون بذلك، فكيف لا تؤمنون بالقدرة على البعث، وتستبعدونها. وكيف لا تؤمنون برسوله صلى الله عليه وسلم، الذي تعرفونه منذ نشأته، فما رأيتم فيه ما يخل بنبوته ورسالته. وكيف لا تؤمنون بالقرآن، وأنتم تعرفون قوة حجته وبراهينه. فأين تقواكم وخوفكم من الله تعالى. فإن في تتابع هذه الأسئلة، مع عظيم تدرجها ما يقيم عليهم بها كمال الحجة التي لا مناص لهم من الاعتراف والتصديق بما جاءهم من الحق، أو الإنكار المبني على العناد والاستكبار.

ثم يتدرج الحوار معهم من مفردات وأنواع مخلوقات الله تعالى إلى عموم الملكوت كله ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قل لهم أيها النبي: من هو الذي بيده مُلك كل شيء، وتدبير هذا الملكوت العظيم، فَيُصَرِّفَهُ كما يشاء. والملكوت هو الملك، وزيادة الواو والتاء لإفادة المبالغة في قوة الملك والتصرف، بل أكد المبالغة بدلالة كلمة ﴿بِيَدِهِ﴾ التي تفيد كمال التصرف، وسرعته، فلا يحتاج إلى الوقت، بل ملكه بيديه، وليس لغيره فيه شأن، ولا يحتاج إلى غيره فيما يريد سبحانه وتعالى، بل إن كمال التصرف له عَزَّ في علاه، مع الغِنَى عن كل معين، بل هو المعين لخلقه سبحانه وتعالى. وجمعت واستحوذت دلالة جملة ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على كل مخلوق، فلا شيء إلا هو من خلقه، وتحت تدبيره وتصرفه سبحانه وتعالى.

ثم انتقل التوجيه الكريم من إثبات الملك إلى إثبات كمال التدبير وسرعته، وجاء البيان بأسلوب التقرير، لا بأسلوب السؤال ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي هو: الذي يُغيث ويُؤَمِّن من يشاء من عباده إذا استغاث به العبد، وإذا أغاثه أنجاه مما استغاث منه. فيمتنع أن يلحقه شيء ما يخاف منه، مما استجار منه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ وفي نفس الوقت إذا أراد بمخلوق أمراً فليس له من دونه أحد يستطيع أن يجير ذلك المخلوق، فيمنع عنه ما أراده الله تبارك وتعالى به. فهو الرب العظيم الذي لا يستطيع أحد أن يجير من أراد الله تعالى به ما أراد، فيمنع عنه مراد الله القوي العزيز. فلا يستطيع أحد أن يجير من أخافه الله تعالى، فأراد به أمراً.

وبالتالي فمن أراد الله تعالى نصرته وإكرامه وتأمينه مما يخاف منه، فلا أحد يستطيع من خلقه أن يدفع عنه مراد الله تعالى. ومن أراد له سوء فلا يستطيع أحد أن يمنع عنه ولو شيئاً يسيراً منه. مما يفيد ويعلم المؤمن أن خير من يستجير به، ويلجأ إلى جواره وكنفه هو الله تبارك وتعالى، وأن عليه أن يلجأ إلى جوار ربه عَزَّ وجل بالطاعة والامتثال، وبالتوكل عليه، وسؤاله سبحانه وتعالى. وأن يدرك أن الله تعالى إذا أراد له خيراً فلا يستطيع أحد أن يمنعه عنه، وإن أراد به عقاباً فلا يستطيع أن يرده أحد، ولا أن يتحرز عنه بأي مخلوق وسبب، إلا بسبب منه تبارك وتعالى. وفي اليقين بهذا ما يغرس في النفس الطمأنينة عند الخوف، والخوف عند وقوع الذنب. فيتهذب سلوك المؤمن ويستقيم. مما يبين أن منهج دين الله تعالى يغرس في المؤمنين خصال الخير، ويصحح مفاهيمهم عن مسارهم ومسار الحياة، وكيف يتعاملون معها في طمأنينة وثبات.

ثم ينتقل بالمخاطبين إلى النتيجة والمحصلة التي تثبت صدق وحقيقة إجابتهم التي أقروا فيها بأن الله تعالى رَبَّ كل شيء ومالكه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن كنتم تعلمون ذلك وتُقِرُّون به لربكم عَزَّ وجل

فعليكم الاستجابة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم قد علمتم ذلك فيلزمكم الإيمان والتصديق بما جاءكم من الحق. فهذه صفاته عَزَّ وجل إن كنتم تعلمونها، بما يفيد: فإن كنتم مُوقنون بصفاته هذه جَلَّ جلاله فاستجيبوا لربكم بطاعة نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم. لأن هذه الصفات من كمال الملك، وكمال الإرادة التي لا يضادها شيء، فتستوجب كمال الطاعة منكم ومن جميع عباده.

ثم يقرر تبارك وتعالى ويبين ما سيقولونه لنبيه صلى الله عليه وسلم عن تلك الصفات وكمال الملك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ إذاً فأين ذهبت عقولكم؟ فطالما أنكم تُقِرُّون لربكم بأن كل شيء تحت قدرته وتصرفه، فكيف تذهبون إلى عبادة الأصنام العاجزة؟

فإن ردهم أنهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: أن لله تعالى كمال الملك. وهو الاعتراف بما يعتقدون من أن بيد لله تعالى الملكوت كله، خلقاً وتدبيراً، وأنه إذا أجار أحداً فلن يصل إليه من يطلبه. وإن أراد بأحد سوءً فلا يستطيع أن يمتنع عنه بأي سبب، وأي مانع، فماله من محيص، ولن يستطيع أن يجيره أحد، فيمنع عنه ما أراده الله سبحانه وتعالى. فحين اعترافهم بذلك، يوجه الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم بهذا السؤال ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فأين ذهبت عقولكم إذاً، طالما أنكم تُقِرُّون لربكم بأن كل شيء تحت قدرته وتصرفه، فتذهبون إلى عبادة الأصنام الخالية والعاجزة من الملك والتصرف، وتشركونها مع ربكم مالك الملك، وتركتم الإخلاص لله تعالى، خالقكم، وخالق الكون كله، ومدبركم ومدبر الملك كله.

ومن غزارة البيان ودقته، أن ورد السؤال لهم بكلمة ﴿تُسْحَرُونَ﴾ أي: تُخدَعُون وتُصرَفُون عن توحيد الله تعالى وأنتم تعترفون وتُقِرُّون له بالربوبية. ودلالة كلمة ﴿تُسْحَرُونَ﴾ تعني غياب الحق عن الذهن، فيتصرف المسحور بخلاف الحقيقة. ففيها اثبات أن تصرفاتهم هي تصرفات مخالفة للحقيقة التي يعرفونها إلى درجة أن تصرفاتهم تشبه تصرفات من غاب عقله بسبب خارج عنه. فهو سؤال تعجب عن هذا التناقض العجيب، المتضارب، الذي يتنافى مع عقل الرشد والإدراك.

ومن جميل البيان تَغْيِيب الفاعل للفعل ﴿تُسْحَرُونَ﴾ لإظهار وإبراز الصورة التي هم عليها، ولتستوعب جميع المؤثرات، من النفس والهوى، وتقليد غيرهم، وتزيين الشيطان، والعناد، والاستكبار، والحسد. وليدعم أهمية البحث عن الذي جعلكم مخدوعين بما أنتم عليه من الشرك، بصرفكم العبادة للأصنام التي اتخذتموها آلهة من دون الله تعالى، وأنتم مقرون ومعترفون بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، وتحت قدرته وتدبيره وتصريفه. ولا أحد يستطيع أن يجير أحداً من الله تعالى فيما يقضيه عليه. فابحثوا عنه، أهو الهوى؟ أو تقليدكم لمن سبقكم؟ أو هو من تزيين الشيطان لما أنتم فيه؟ أو الكبر والتعالي؟ أو جميعها؟ فهو حوار مليء

بالحقائق المبطلة للباطل، والمحقة للحق. ولذلك جاء إثبات الحق والحقيقة مباشرة بقوله تعالى ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

ثم انتقل البيان الكريم إلى النتيجة والمحصلة بعد أن كشف لهم بطلان ما هم عليه، ولزوم ووجوب اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الله تعالى. فبدأ الانتقال من حوارهم إلى أسلوب التقرير الذي يعترف به كل أحد من المشركين بأن الذي جاءهم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فقد جئناهم بالحق الواضح، الذي يعرفونه تماماً، ويعترفون به في قرارة أنفسهم، ولكنهم جحدوا هذا الحق، وكذبوا به. لأن الكذب هو مخالفة ما يعرفه الكاذب من الحق. فهو يخالف ما تقرر عنده في نفسه من الحق.

وقد بدأ تحرير الإثبات لحقيقة النتيجة بحرف ﴿ بَلْ ﴾ بمعنى لكن، والذي ينفي صدق وصواب ما هم عليه من الباطل، ويُثبت ما بعده من البيان للحقيقة ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ فباعترافهم بالأدلة التي صَدَّقوا بها فإن الأمر ليس بأنهم مسحورون عن الحق الذي آتيناهم به، وهو القرآن الكريم، وتوحيد الله تعالى، وجميع ما وردهم من الحجج. فإن الذي آتيناهم به هو الحق المقرر لما يعرفون من الحقيقة التي اعترفوا بها، فالنتيجة المفسرة والمبينة لحالهم إذاً هي الجحود للحق المستقر في نفوسهم، فإن أمرهم مقطوع به أنهم كاذبون ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فإنهم يخالفون ما يعتقدون ويعرفون بأن القرآن حق، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم حق، وما بينه لهم صلى الله عليه وسلم فهو الحق المبين. ولكنهم يكذبون بمخالفتهم لما يعرفون. لأن الكذب هو تعمد إخفاء وطمس الحق والحقيقة مما يعرفه الكاذب، فهو نكرانه للحقيقة، والقول بغير ما يعرف من الحق. وأن تكذيبهم شامل لجميع مفترياتهم من الأباطيل.

ثم يُبطل الله تبارك وتعالى ما كان ينسبونه إلى خالقهم عَزَّ وجل من الشريك والولد، لأنه منزه عن ذلك جَلَّ في علاه ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يُكَذِّبُ الله تعالى من قال أن لله عَزَّ وجل الولد جَلَّ شأنه، وهو الغني عن ذلك. فقد أثبت الوحدانية لذاته عَزَّ وجل، بنفي الولد قطعاً ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ فأورد جَلَّ جلاله تكذيب من ادَّعَى أن لله تعالى الولد بصيغة الماضي ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ﴾ الذي يفيد النفي من الأصل. فينتفي بذلك من ادَّعَى أن الملائكة بنات الله، ومن قال المسيح ابن الله، ومن قال عزير ابن الله.

ولفظ الولد ﴿مِن وَلَدٍ﴾ يشمل الذكور والإناث، فيكون النفي قطعي للنوعين. وأكد ذلك بحرف ﴿مِن﴾ التي أفادت القطعية. ثم عطف على نفي الولد نفى الشريك من أصله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ فليس معه شريك البتة، فهو أمر مقطوع به. وذلك بإفادة التأكيد القطعي والنهائي لهذا الادعاء الفاسد.

فابتدأ تكذيبهم بأداة النفي ﴿وَمَا﴾ وأكد ذلك بحرف ﴿مِنْ﴾ الذي أفاد الأمر القطعي في هذا الشأن. وفي هذا اثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، الخالية من الشريك والولد، وأنه منزه عن ذلك جَلَّ جلاله، فالعاجز هو الذي يحتاج إلى من يعينه من الشريك والولد، ومن ينوب عنه. وهو الغني عن غيره، وغيره محتاج ومفتقر إليه عَزَّ في علاه.

ثم انتقل البيان الاستدلالي إلى العلة التي يدرك بها ممن كان له عقل انتفاء الشريك. فقال عَزَّ وجل ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ فلو كان هناك شريك معه عَزَّ وجل ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ فلذهب كل شريك بما انفرد به مما خلق. فإن شأن الشريك أمر مستحيل أن يكون، بسبب حصول التنازع بين الشركاء، لأن كل شريك يريد أن يتفرد بما خلق، لئلا يُضاف إلى غيره من الشركاء، فيحصل الاستيلاء والتدبير من غيره فيما خلق. وبالتالي يختل نظام الكون، ويختل نظام الحياة. والسبب الثاني: هو التعالي بين الشركاء فيما بينهم ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فكل واحد منهم يريد أن تكون له الغلبة والزعامة والسيادة، بأن ينفرد بالعلو على غيره من الشركاء، وذلك لمحبة التعالي بينهم. وبالتالي يحصل الفساد لهذا الكون، بما يحدث فيه من تنازع الشركاء. في حين أن المشاهد في الكون هو انتظام الكون انتظاماً دقيقاً، فالامتناع والتمانع بين الاتساق والانسجام في الكون وبين الشراكة يوضح ويبين انتفاء الشركاء، وينفي اتخاذ الولد، ويثبت انفراده سبحانه وتعالى بالربوبية والألوهية والخلق والتدبير، فهو أمر محال أن يكون فيه شريك لله تعالى مع هذا التناسق والتدبير الدقيق في هذا الكون العظيم في حجمه، وفي تنوع مكوناته، واتساق علاقاته. فأين عقولكم عن ذلك. بما يفيد التحقير لمن يكون عقله بهذه السذاجة الواهية.

ثم ينزه سبحانه وتعالى ذاته العظيمة الجليلة عما يصفه به الجهلة من عباده، من صفة الولد والشريك، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزه وتعالى الله عَزَّ وجل علواً كبيراً عما يصفه المبطلون. فإن ربكم عالم بدقائق مخلوقاته ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فقد أفادت دلالة ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ كمال علمه عَزَّ وجل بما غاب عن عباده. وما يخفون ويتكتمون عليه، فلا يغيب عنه من خلقه شيء، فهو يعلم ما غاب عن أبصاركم وأسماعكم وعن علمكم. وكذلك هو عالم بما تعلمون من مشاهداتكم ﴿عَٰلِمِ

ﵟٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِﵞ يعلم ما تشاهدونه وتسمعونه، وتبصرونه. فالعلم بالمشاهد كالعلم بالغيب عنده جَلَّ جلاله. مما يبين لكم عظمة ربكم وخالقكم ومدبر حالكم، وحال الكون كله. فيلزمكم اتقاء علمه بما تُغَيبُونه في قلوبكم عن غيركم من إدراككم ومعرفتكم بصدق ما جاءكم به نبيكم ورسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، فلن تستطيعوا أن تتخفوا عنه بما تخفونه بينكم. فإنه سبحانه وتعالى ﵟعَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِﵞ ثم يختم الله تبارك وتعالى ذلك بتنزيه ذاته العظيمة الجليلة عن الشرك بأسلوب التعظيم، الذي لا يليق بمقامه عَزَّ وجل بأن يُنسَب إليه الشريك، وهو الغني عن غيره، وغيره فقير إليه سبحانه وتعالى ﵟفَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَﵞ فارتفع وتعاظم شأنه عَزَّ وجل عن إشراك المشركون ﵟفَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَﵞ فتعاظم سبحانه وتعالى عن غيره من المخلوقين، فإنه أجل من أن يصفه المخلوق بذلك الوصف. فتقدس وتنزه سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بعظمته وعزته وسلطانه جَلَّ جلاله.

ﵟقُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ﵞ

بعد أن أقام الله تعالى على المكذبين المشركين حججه العظيمة الباهرة، وأعرضوا عنها، ولم يتلقوها بالقبول والطاعة، فإن الله تبارك وتعالى يُعَلِّمُ نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ما يقوله إزاء ما سيحدث من قضائه عَزَّ وجل بأولئك المكذبين المشركين الذين استحقوا العذاب بإصرارهم على الكفر، بعد أن قامت عليهم الحجج والآيات الباهرات ﵟقُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَﵞ قل يا أيها الرسول: يا رب إن أريتني ما يوعدون من العذاب ﵟرَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ فاجعلني خارجهم، وخارج موطن عذابهم. فإن أنزلت بهم نقمتك فاجعلني خارجاً عنهم، بإبعادي عنهم. حتى لا يصيبني ما يصيبهم. ولا تهلكني بما تهلكهم به من العذاب. وقد أظهرت الآيتين الكريمتين علو التضرع، وقوة المبالغة في الرجاء، حيث جاء ذكر النداء بالرب مرتين.

وفي هذا الدعاء إرشاد للمؤمنين بأن يلوذوا بربهم. وكما دل وأفاد هذا التوجيه الكريم أن الله تبارك وتعالى سينزل عذابه على أولئك الذين أعرضوا عن الحجج التي أقامها عليهم، وتلقوها بالتكذيب والرد والعناد، وقد أراهم الله تعالى ما وعدهم ببدر وغيرها، ونجى الله تعالى رسوله والمؤمنين. وقد سماهم الله تعالى بما كانوا عليه من الظلم ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين استجمعوا أنواع ظلمهم، وهو ظلمهم لأنفسهم، وظلمهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم، وظلمهم لكتابه وهديه تبارك وتعالى، وظلمهم لغيرهم بالحث والتزيين والاقتداء.

كما أفاد وأبان هذا التوجيه الرباني لرسوله صلى الله عليه وسلم بالدعاء والاستجارة به عَزَّ وجل بأنه مهما بلغ الإنسان من الطاعة فإنه يجب عليه الدعاء، وأن يلوذ بربه عَزَّ وجل من الفتن، وما قد يصيب أهلها من العقاب. فَيُعَلِّمُ اللهُ تعالى الأمة من خلال تعليم رسولهم التضرع إليه، لأنه لا مُنَجِّي إلا الله تعالى. فهو الذي يدبر سبل الإنجاء. والمتأمل في مجريات غزوة بدر يدرك قوة تدبير الله تعالى في جرهم إلى هلاكهم بقتل أشرافهم وزعمائهم وأسيادهم شر قتله. فَقُتِل من المكذبين المشركين سبعين، وأُسِر منهم سبعن. وكان عدد جيش المشركين ألف رجل، ومعهم مئتا فرس. وعدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ومعهم فرسان. فكان المشركون ثلاثة أضعاف المسلمين، ولم يُقْتَل من المسلمين إلا أربعة عشر رجلاً. فنال المشركون عذاب القتل، وعذاب انكسار أنفسهم بالأسر، وعذاب الإهانة والهزيمة، وكثرة القتل. وكيف أحدق الله بهم شر العذاب المهين.

ثم يبين عَزَّ وجل كمال قدرته، بأن يُرِي رسوله صلى الله عليه وسلم ما وعدهم به من العذاب ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ فإننا قادرون على أن نجعلك ترى بعينك ما وعدناهم به من العذاب، بما يفيد: دون أن يصيبك ومن معك من المؤمنين شيء مما وعدناهم به من العذاب. فإن ذلك من وسعنا وقدرتنا. وقد ورد التأكيد البياني بذلك، بحرف التوكيد المتصل بنون المتكلم ﴿وَإِنَّا﴾ ليفيد تأكيد القدرة بالوفاء لِمَا نعد به. مما يفيد أن الله سبحانه قادر على تجليت وإبعاد من يريد عافيته من بين من أراد إصابتهم بما أراد من البلاء. فكم من مخالط لمريض، فلا يصيبه ذلك المرض المعدي. وكم من الحوادث التي يموت فيها الكثير، وينجو من بينهم من كتب الله تعالى له النجاة. وسواء في نجاة الأنفس، أو النجاة من الأمراض القاتلة، أو النجاة من الخسائر التي لا تحصى أنواعها. فإن لله تعالى كامل القدرة على ذلك. وفي هذا تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين، بأن النجاة متحققة لهم بلطفه وتقديره سبحانه وتعالى. وبالفعل رأى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون قتلى صناديد قريش يوم بدر.

ثم يُعَلِّمُ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل التي يتعامل بها مع من يسيء إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ادفع واصرف إساءتهم بأحسن ما يكون منك من الأساليب ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ فمن أساء إليك بالقول أو العمل،

أو بهما معاً، فادفع تلك الإساءة بمقابلتها بالقول والفعل الحسن. ومن بلاغة البيان: أن ورد الدفع بالتي هي أحسن على وجه العموم ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ليستوعب أوجه الْحُسن المتعددة، التي تتناسب مع كل موقف، وكل حال، لأن كل موقف له ما يناسبه من الْحُسن. كما عمم ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ لتستوعب أنواعها ودرجاتها، فيكون الدفع ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وفق ما يناسب كل سيئة. مما يعلم المؤمن بأن لا تكون ردت فعله مساوية للبذيء والفاسد والجاهل والحاقد، وإن كان جائزاً له شرعاً، أن يرد السيئة بمثلها، ولكن يرتقي بأخلاقه وحُسن تعامله إلى ما يقطع به الشر. ويتعداه إلى ما يحقق النفع، ويتجاوزه إلى التي هي أخير وأحسن، وأليق بالمسلم الذي يتحصل له بتلك الأخلاق إخماد الشر؛ بدلاً من إشعاله، كما في ذلك من رد الخصم للتأمل والتفكر، وإخماد ثورانه، وربما يتعلم منها، فيعامل غيره بها، وقد تدفع خصمه إلى طلب الخير، والمجيئ إلى الحق، وتحصيل مراد المؤمن بإصلاح غيره. مما يفيد أن صاحب الأخلاق الرفيعة يتورع عن التصادم. وهذا يتطلب الصبر، والكف، والصفح والإعراض، مع كظم الغيظ. وهي مجاهدة، تُعَلِّم وتربي الحلم والحكمة في المؤمن، وتعزز لديه خصال الصبر بحسب المواقف.

ثم ينبه تبارك وتعالى إلى كمال علمه بجميع أقوالهم ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ فنحن نعلم بما يصفون ربهم به، مما يفترونه من الكذب، الذي لا يليق بمقامه سبحانه وتعالى. وتشمل كذلك ما يصفون به نبيهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وما يصفون به القرآن الكريم، وما هم عليه من الشرك. فشمول دلالتها تتسع لكل ما يصدر منهم من السوء. لأنها وردت بحذف مفعول الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾ لتشمل كل وصف صدر منهم في حق ربهم عَزَّ وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكتابه القرآن العظيم. ومفاد هذا أن الله سبحانه وتعالى عالم بهم تمام العلم، ومجازيهم على جميع ما يقولون، وما يكون منهم، وأنه خاذلهم، وكاسر شوكتهم. وبالتالي فلا يحزنك أقوالهم وأفعالهم.

ثم يرشد الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى التعوذ من الشيطان الرجيم ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وقل يا أيها الرسول: استجير وأعتصم بك ربي من إغواء الشيطان، ووسوسته، وما ينزغ به الشيطان للغواية بالباطل، والنهج الفاسد، المفسد، الذي يصد عن الحق. مما يبين افتقار العبد لربه في أن يدفع ويذود عنه غوائل الشيطان، ومصارعه، وتصيده له، بجره إلى ما يفسد عليه أمره وشأنه.

ومعنى التعوذ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ هو اللجوء والاستجارة والاعتصام بالله تعالى ﴿ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ والهمزات هي: شدة الدفع، وهي تعني: نزغات الشيطان، ووسوسته، ونفخه ونفثه، بأن يدفع الشيطان غيره من الإنس بأسلوب الإغواء إلى المعاصي والمهالك.

وكذلك يعطف الله تعالى على الأمر الأول: الذي هو ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ يعطف عليه أمراً آخر: فيأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالتعوذ من حضور أحد الشياطين أمراً وشأناً له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ وأستجير بك يا ربي أن يحضرني أحد من الشياطين في أي أمر وشأن لي. فيشمل التعوذ أمور الدين والدنيا. فإن مجرد حضورهم هو شر، فَيُستعاذ بالله تعالى منه. فليس الأمر متوقف على حصول أذاهم فقط وهو ما بينه قوله تعالى ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ بل يتعداه طلب التعوذ حتى من مجرد قربهم بالحضور ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ وإذا كان هذا الشأن مأمور به النبي عليه الصلاة والسلام، فإن حاجة أمته إليه أعظم في كل وقت وحين. ففي هذا تعليم وإرشاد للمؤمنين بالتحصن من الشيطان بهذا التحصين، وأنه لا مُحصّن لهم من الشيطان وغيره إلا بالله تعالى، فليلتجئوا إليه سبحانه وتعالى، ويتحصنوا به، وفق ما علمهم. بل قد وَرَدَ تأكيد وتعظيم شأن الالتجاء إلى الله تعالى بتكرار ذكر الرب سبحانه وتعالى مرتين. لإفادة قوة التضرع والالتجاء والاستعانة بالله عَزَّ وجل من الشيطان الرجيم. فنعوذ بالله تعالى من الشياطين.

ثم يعود وينتقل البيان الكريم إلى الإخبار والإعلام بحال الكافرين والعاصين حين حضور الموت إليهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ فعند حضور الموت لأحدهم، ومعاينته نزول أمر الله تعالى به، وما هو مُقْدِمُ عليه، فإنه يطلب العودة إلى الحياة، ليعمل بمنهج الله تعالى. بعد أن كان في عناد وتمرد على الحق ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ فعندما يدرك أحدهم الموت، بظهور علاماته، ويعاين نزول أمر الله تعالى به، وما هو مُقدِمُ عليه من عذاب الله عَزَّ وجل، فهنا تحصل له الندامة والحسرة على ما كان منه من الكفر إن كان كافراً، ومن المعاصي إن كان عاصياً ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ أعيدوني إلى الدنيا. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر الله تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: ليس سؤال الرجعة مختصاً بالكافر، فقد يسألها المؤمن، كما في آخر

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٥/٣)

سورة المنافقين[١] وهو قوله تعالى عن المفرطين ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ففيها يتمنى الرجعة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ فيسأل ربه سبحانه وتعالى بربوبيته ﴿ رَبِّ ﴾ سؤال تذلل وتوسل واستسلام ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ أعيدوني وردوني إلى الدنيا. فيقولها بأسلوب التعظيم لله تعالى ﴿ ٱرْجِعُونِ ﴾ لأنها بصيغة الجمع التي تفيد التعظيم النابع من الخوف لما عاينه. مما يفيد أن حاله حال المتحسر، والحسرة نوع من العذاب النفسي عليه.

ثم يذكر العلة من طلبه الرجوع إلى الدنيا ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ فيتمنى العودة إلى الدنيا من أجل أن يستدرك ما فاته من إضاعته التصديق والإيمان والطاعة والامتثال بدين الله عَزَّ وجل ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ فبدأ بتعليل طلب الرجوع إلى الدنيا بكلمة الرجاء ﴿ لَعَلِّيٓ ﴾ التي تفيد الرجاء في أن يُجاب طلبه، والإشفاق على نفسه مما هو قادم عليه، وأن يتحقق مطلبه كي ﴿ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ حتى أستدرك ما ضيعت، من الإيمان والطاعة لله تعالى. مما يدل على الاعتراف المقرون بالحسرة بعد فوات وقته وزمنه ومحله. كما تدل على الوعد منه بالامتثال، والطمع في أن يتحقق مراده. وجملة ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ تفيد فيما ضيعت، من الإيمان والطاعة لله تعالى. فحصر طلبه فيما ينجيه في الآخرة فقط، بما يفيد أن طلب الرجعة من أجل العمل للآخرة، وليس للدنيا وزينتها، فقد حسم أمر الرجعة وحصره فيما هو متعلق بأمر الآخرة. مما يعطي الحي صورة حقيقية لمن أضاع دنياه في المعصية. وأن عليه استثمار حياته لآخرته، قبل أن يتحسر على ما فرط فيما يجب أن يكون للآخرة.

فيأتي الرد على مطلبه بامتناع ذلك، وبكلمة مفادها الامتناع القطعي ﴿ كَلَّآ ﴾ لا رجعة له إلى الدنيا، فقد انقطع عنها، وانتقل لما بعدها. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: ليس الأمر على ما قال هذا المشرك، لن يرجع إلى الدنيا، ولن يُعاد إليها[٢] ثم يبين سبحانه وتعالى أن هذا المطلب يقوله كل من كفر ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٠٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/١٠٨)

﴿ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ هذه الكلمة المؤكد قولها من الكافر والمفرط، هي حقيقة مقطوع بها لكل كافر، بسبب ما يرى مما هو قادم عليه من حقيقة الآخرة، وعذابها لمن كفر. مما يفيد تعظيم حسرته وندامته التي تختلج وتعترك في نفسه، ولكن لا يستطيع استدراكها ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ فإن من أمامهم حياة البرزخ التي هي حياة القبر، فيتنعم المؤمنون المطيعون، ويتعذب فيه العصاة، من موتهم إلى يوم البعث. فجملة ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم ﴾ تعني: من أمامهم، والذي أمامه، هو الأمر الْمُقْبِل عليه بعد دنياه، وحصول موته. وأما كلمة ﴿ بَرۡزَخٌ ﴾ فهو كل مانع بين شيئين، وهو الحاجز بين الدنيا والآخرة. وهي حياة البرزخ التي هي حياة القبر، فيتنعم المؤمنون المطيعون، ويتعذب في القبر العصاة، من لحظة موتهم إلى يوم يُبعَثُون، حيث الحساب والجزاء. وفي هذا بيان ووعظ وإنذار وتحذير، ليكون كل أحد من الناس قد علم بما هو قادم إليه. فلا يلوم كل أحد إلا نفسه، فمن أراد الآخرة فعليه أن يسعى لها سعيها، ومن ترك الآخرة وأراد الدنيا فلا ينتظر إلا الهلاك من ساعة حضور موته. وأما مدت حياة البرزخ فكما قال تعالى ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ فيعيشون في قبورهم إلى يوم خروجهم من قبورهم إلى المحشر، حيث الحساب والجزاء.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ
١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ
١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا
ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ
تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى توضيح حال الناس يوم القيامة، وما يكون فيه من أحداث ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يخبر الله تعالى بما سيكون من حال الأموات حين خروجهم من قبورهم، بأنه عندما يتم النفخ في الصور ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ الذي هو عبارة عن قرن

ينفخ فيه المَلَك. فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال (الصور: قرن ينفخ فيه)[1] فحين حصول هذه النفخة يخرج الناس بها من قبورهم، وهي نفخة البعث من القبور. فعندها يكون شأن الناس هو ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ففي ذلك الوقت تغيب عن الناس أنسابهم من هول الموقف، واستيلاء الفزع على الذهن. ولا يسأل أحدٌ أحداً عن نسبه ليتعرف عليه. كما هو الحال في الدنيا، بل الأمر أعظم من أن يفكر في ذلك أصلاً. كما يدل على أن الأنساب التي يتفاخرون بها في الدنيا، يفقدون التفكير فيها ذلك الموقف، لأن التفاوت في ذلك الموقف يكون بالأعمال والتقوى، فلا قيمة للنسب في زوال الهول من القلوب. وليس له حضور في التقديم والتأخير، فقد انتهى شأنه في الدنيا من هذا الوجه. فقيمة الإنسان اليوم بعمله وتقواه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها، أو يتقاطعون بها. لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ، وإنما يُرفع التواصل والتفاخر بها[2]

كما أنه من شدة هول ما استحوذ على العقول فإنه لا يسأل بعضهم بعضا ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فينتفي سؤال التواصل والتعارف؛ كما كانوا يفعلونه بينهم في الدنيا. إذ ينقطع آثار ما كان يترتب على اللقاء من التعارف في الدنيا. فلا يتساءلون عن أنسابهم، ولا عن مواطنهم في الأرض، ولا عن ممتلكاتهم، ولا ما يتفاخرون به، فكل مشغول بنفسه، وبما سيكون عليه في ذلك الموقف.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما يكون بعد النفخ في الصور من أثر الحسنات على أصحابها، وأثر السيئات على أهلها. فأولاً: آثار الحسنات على أصحابها، وهم المؤمنون، فإن هناك ثِقَلٌ عظيم لكثرتها ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فمن كانت موازين أعماله مُثقلة بالصالحات، فقد أفلح أولئك فلاحاً عظيماً، بفوزهم ونجاتهم. فيفوزون بالجنة، وينجون مما يخافونه من العذاب. وفي دلالة الميزان ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ما يدل على الكفتين التي للميزان، فهناك حسنات، وهناك سيئات، فمن رجحت حسناته بسيئاته لكثرتها فقد أفلح بالفوز بالجنة. فالمؤمن تَثْقُلُ حسناته على سيئاته. فإن الوزن يوم القيامة لأعمال الناس عدلاً، لا ظلم فيه، فتوضع أعمال الإنسان في الميزان فتوزن. وهو مشهد مهيب لا يقاس على الدنيا، فالقرآن يأتي على هيئة إنسان، كما قال صلى الله عليه وسلم (يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، فيقول: أنا الذي أسهرت

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٤/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٥/٣)

ليلك، وأظمأت نهارك) [١] وسورة البقرة وآل عمران تأتيان لصاحبها كأنها غمامتان كما جاء في الحديث[٢] وكذلك ما جاء من أحوال القبر، (... ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح[٣] وكذلك حديث البطاقة (فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة) [٤] مما يبين أن أحوال القبر، وأحوال يوم القيامة لا تقاس على أحوال الدنيا، فإن الله تعالى عظيم في خلقه وتدبيره، ولذلك من لوازم الإيمان: الإيمان باليوم الآخر وأحواله.

ثم يبين تبارك وتعالى حال من خفت موازينه ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ فمن خَفَّت موازين حسناته، ورجحت بها موازين سيئاته ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ فأولئك الذين أضاعوا أنفسهم بما كان منهم في الدنيا، فحققوا لأنفسهم خسارة الجنة، وهي أعظم خسارة ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ فبسبب تحقيق الخسارة لأنفسهم بمعصية الله تعالى، فقد تحققت لهم نار جهنم. وجهنم اسم للنار التي يعذب الله تعالى فيها من استحقها، فهي دار العقاب الأبدي للكافرين.

وفي دلالة لفظ الخسارة ما يحقق الغبن، خاصة وأن الخسارة ليست في فقد مملوك، بل في فقد النفس لنعيمها، ودخولها العذاب. فالذين خسروا أنفسهم يوم القيامة هم الخاسرون حقيقة، وهم المغبونون الذين انتفى منهم الإيمان الموجب لدخول الجنة. فقد خسروا أنفسهم، بضياعها في الكفر، وفقدانها لجنات النعيم، فأوقعوا أنفسهم في العذاب المهين، فتحققت لهم الخسارة الحقيقية.

ثم يذكر تبارك وتعالى سوء مصير الكافرين ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ تحرق وتسفع النار وجوههم، إذ تغشاهم غشيان يعم أجسادهم. واللفح هو الإحراق الشديد، وهو أبلغ في البأس والشدة. وتخصيص الوجه بالذكر لأنه الأهم والأعز عند الإنسان. بما يفيد الإهانة والذل لهم، مع شدة حاسته فيما يصيبه ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ وهم في هذه النار التي ينشوون فيها عُبُوس، إذ تتقلص شفاههم من شدة النار، حتى تتكشف الأسنان من تقلص الشفاه. لأن الكلوح ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ هو عبوس الوجه،

(١) ابن ماجه، سنن ابن ماجه (١٢٤٢/٢) برقم (٣٧٨١)
(٢) مسلم، صحيح مسلم (٥٥٣/١) برقم (٨٠٤)
(٣) أحمد، المسند (٤٩٩/٣٠-٥٠١) برقم (١٨٥٣٤)
(٤) الترمذي، صحيح (٢٥/٥) برقم (٢٦٣٩)

نتيجة تقلصه من شوي النار له، حتى تظهر وتبرز الأسنان. قال أهل اللغة: الكلوح: تكشير في عبوس[١] قال الزجاج رحمه الله تعالى: تلفح وتنفح بمعنى واحد إلا أن اللفح أعظم تأثيراً. والكالح: الذي تشمرت شفته عن أسنانه، نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان، وتشمرت الشفاه[٢] والكالح من تشمرت شفتاه، وظهرت أسنانه. فصورتهم وهيئتهم في أبشع ما يكون من شدة ما يصيبهم من العذاب الذي لا يفتر ولا يتوقف عنهم. مما يفيد الإنذار والتحذير من هذا المصير. ونعوذ بالله تعالى من النار، ومن عذاب الله عَزَّ وجل.

فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فيُعَادُون إلى ما كان منهم من الصدود عن آيات الله تعالى في الدنيا، وبأسلوب السؤال التقريري. أي: قد جاءتكم آيات الله تعالى وحججه وبراهينه، فكبتم بها. ويعني صدودهم، أي: تكذيبهم للقرآن الكريم. واستهزائهم به، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاءهم من الحق ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ سؤال يقررهم بما كان من إنكارهم لكتابه العزيز، القرآن العظيم. إذ كانت آيات القرآن الكريم تتلى عليكم بالحجج والبراهين الدالة على أنه كتاب الله العزيز الحكيم، والدال على وحدانية ربكم، وصدق رسالة نبيكم ورسولكم صلى الله عليه وسلم ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فكنتم بالقرآن الكريم تنكرون، وتكذبون. ظلماً وعناداً منكم للحق الواضح الجلي، ولم تتعظوا بما جاءكم من الحق. فارتكبتم العظائم من الفجور والبطر. فلا تلوموا إلا أنفسكم لِمَا كان من كبريائكم، واستعلائكم على الحق الواضح المبين. مما يفيد ويبين أن آيات القرآن الكريم حجة كافية على الكافرين، لِمَا فيه من الحجج والبراهين على أنه كتاب من الله العزيز الحكيم. وهذا يبين عدل الله تعالى حتى في البيان، إذ يذكرهم، ويجيبهم عن أسباب الحال التي هم فيها كالحون. وهذا البيان من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين ويحذر الكافرين مما هم مقبلون عليه.

فيقول هؤلاء الذين هم في العذاب يصطلون ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ﴾ لقد كان السبب يا ربنا هو: أن غلب علينا ما أشقانا من الشهوات والأهواء، فحصل الإعراض عن الحق بما كنا فيه من الكفر. فبدأوا جوابهم بالربوبية ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا ﴾ بما يفيد التذلل الكامل، رغبة في تحصيل مطلبهم، ثم بدأوا بالتبرير لِمَا كان منهم من الضلال ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا ﴾ لقد كان السبب هو: أن غلب علينا ما أشقانا من الشهوات والأهواء، فحصل الإعراض عن الحق بما كنا فيه من الكفر. فقد انتصر

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٠١/١٢)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٤/٥)

علينا الشقاء بسبب طاعتنا للأهواء والشهوات ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ فبسبب ما غلب علينا مما أشقانا من الشهوات والأهواء فإنا ضللنا عن الحق، فكنا جماعة وقوماً ضالين، تائهين عن الحق، فالضال هو التائه عن الحق والحقيقة والمراد. فأوقعنا ذلك في الضلال الذي أبعدنا وصرفنا عن الحق والرشاد.

فاعترفوا بأن الذي أوقعهم في الضلال هي شقوتهم، فنسبوها لأنفسهم ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ والشقوة والشقاوة هي مضادة للسعادة. مما يبين أنهم اعتقدوا بهذا الاعتراف أن يتحصل لهم بها النجاة، ولذلك أعقبوا التبرير لضلالهم بسؤال يريدون به الإنقاذ لهم مما هم فيه من العذاب ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فكرروا مخاطبة ربهم بربوبيته ﴿ رَبَّنَآ ﴾ بأنه رب كل شيء ومالكه، ثم أوردوا طلبهم ﴿ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ التماس وتوسل للخروج من النار، بما يفيد طلب الرجعة إلى الحياة الدنيا، فَرُدَّنَا إلى دار الدنيا ﴿ فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فإن تكرر منَّا ما سلف من الكفر والعصيان ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فإنا إذاً متصفون بالظلم لأنفسنا، فنكون مستحقين لهذا العقاب. وفي هذا إعلام من الله تعالى بما سيكون للكافرين والعاصين قبل أن يكون، ووصف لحالهم كيف يكون في الآخرة قبل أن يكون، فيعيشه الْمُخَاطَبُون وكأنهم يرونه ويُحاكونه. وبهذا قد تكامل وعظ القرآن وإرشاده وبيانه لمآل الكافرين، كما أبان مآل المؤمنين بدقة وعناية في مواضع متعددة ومتكررة في كتابه القرآن العظيم. فأقام الحجة عَزَّ وجل، وبانت واتضحت للعباد. فاحذر أيها الإنسان مما أبانه وأوضحه لك ربك تبارك وتعالى.

فأجاب الله تعالى على طلبهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال ربنا تبارك وتعالى لهم: ابعدوا وامكثوا في العذاب مهانين، صاغرين أذلاء ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ولا تتكلموا بمطلبكم وسؤالكم هذا مرة أخرى. بما يفيد امتناع خروجكم، مع بقائكم فيما أنتم فيه من العذاب الشديد المهين. وكلمة: اخسأ في قوله تعالى ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا ﴾ تفيد معنى الطرد والبقاء والقعود فيما هم فيه من النار. قال الزجاج رحمه الله تعالى: تباعدوا تباعد سخط. يقال: خَسَأت الكلب أَخْسَؤه إذا زجرته ليتباعد[١] فأفادت الزجر والشتم والتحقير لهم، والإبعاد لرجائهم وآمالهم في العودة إلى الدنيا، والرفض القاطع لمطلبهم. وإحلال اليأس في قلوبهم بدل الرجاء، ليزدادوا عذاباً وألماً في نفوسهم بالحسرة والندامة مع ما هم فيه من عذاب النار. ونسأل الله تعالى العافية والهدية، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يبعدنا عن النار، ويبعدها عنا برحمته وكرمه وجوده، إنه جواد كريم.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٥/٥)

ثم يُعِيدُ عليهم تبارك وتعالى ما كان من حال المؤمنين في الدنيا، وما كان من حالهم تجاه المؤمنين في الحياة الدنيا، فيبدأ البيان بما كان عليه المؤمنون في الدنيا ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فإنه كان في الحياة الدنيا فريق وجماعة من عبادي ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى ﴾ وهم المؤمنون ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فقد كان هذا الفريق يعلن إيمانه بكامل ما يجب الإيمان به، معلنين إيمانهم بقولهم ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ آمنا بك يا ربنا وخالقنا، وبرسولك، وبكامل ما يستوجب ويتطلب الإيمان، ويطلبون من الله تعالى المغفرة لذنوبهم ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ بأن يمحو ذنوبهم عنهم، ويسترها. ويطلبون مع المغفرة الرحمة ﴿ وَٱرْحَمْنَا ﴾ بأن ينعم ويتفضل ويحسن إليهم ربهم برحمته. ومعظمين لربهم جَلَّ جلاله بقولهم ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وأنت خير وأعظم وأفضل وأكرم من يرحم، فليس هناك خير وأفضل منك في الرحمة. فأنت أهل الرحمة الحقيقية ومصدرها. وفي هذا تضرع وتذلل لربهم، واعتراف منهم بما هو أهله وله عَزَّ وجل. مما يبين خضوعهم لربهم، وخشوعهم وتقواهم التي اجتمع فيها الرجاء في رحمة ربهم، والخوف من الجزاء على ذنوبهم.

فبعد أن بين سبحانه وتعالى ما كان عليه المؤمنون في الدنيا من الطاعة والرجاء في ربهم أن يغفر لهم ويرحمهم، يبين للكافرين ما كان منهم تجاه هؤلاء المؤمنين في الدنيا، من السخرية والاستهزاء ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ فقد كان حالكم مع هؤلاء المؤمنين أنكم وضعتموهم موضع السخرية، ولم تماثلوهم وتقتدوا بهم ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ فسخرتم مما كانوا عليه من التوحيد والإيمان والطاعة، والتضرع لربهم. ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ حتى بلغ انشغالكم بالسخرية من المؤمنين أن وصلتم إلى الحال التي ذُهِلْتُم بها عن التأمل فيما جاءكم به القرآن من الذكر الذي يعظكم ويرشدكم. فقد بلغت بكم شدة السخرية من المؤمنين مبلغاً أوصلكم إلى الانشغال عن الذي يجب عليكم تجاه ربكم. حتى أنه أنساكم ذلك الانشغال أن تتذكروا ما يجب عليكم من ذكر ربكم بالطاعة والامتثال. فقد أنساكم ذلك الانشغال بالاستهزاء ما أفقدكم الاتعاظ بذكر ربكم من المواعظ والترغيب والترهيب، والتذكير الذي تسمعونه من كتاب ربكم، وما جاء به نبيكم ورسولكم صلى الله عليه وسلم.

مما يفيد ويبين أن من انشغل بالباطل نسي ما يقابله من الحق، وأن من انشغل بالفساد، تاه فكره عن الحق، وأن كل مَفْسَدَةٍ ينشغل بها الإنسان فإنها تلهيه وتُغَيِّبه عن ما يقابلها ويضادها من الحق. وفوق هذا

الاستهزاء منكم لهم فقد كنتم تضحكون منهم على سبيل السخرية ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ فتضحكون من صنيعهم في عبادتهم وطاعتهم، استهزاء وسخرية بهم. مما يوضح مخاطر الاحتقار والاستهزاء بأهل الصلاح، وبحالهم، مهما كانوا عليه من الفقر، والقلة، والضعف والاستكانة والمسكنة. فانشغال الإنسان بما ينفعه هو الأصل، ومن ذلك أن ينشغل بما يساعد ويعين به غيره على الخير والحق.

وفي هذا بيان لحال الكافرين المستهزئين بالمؤمنين في الدنيا، من أجل أن يصدوهم عما هم فيه من الحق. وفي هذا دلالة وبيان على أن من أساليب المبغضين للحق هو الاستهزاء والسخرية من منهج أهل الحق، رجاء أن يقلعوا عما هم فيه من الحق. وهو أسلوب يستخدمه كل مبغض لنوع من الحق، أو للحق كله. مما يدل على أنهم أَلْحَقُوا بالمؤمنين أذاً عظيماً في شكله ومحتواه، وأنه زمن ليس بالقصير. وانشغلوا بأذى المؤمنين انشغالاً أنساهم ما يجب عليهم، وما يحقق لهم النفع والخير والنجاة. فانشغلوا بهم عما جاءهم من الحق. وفي هذا بيان إلى عظيم ودقة علم الله تعالى بحالهم الذي هم عليه، بما يُوجب عليهم أن يتعظوا قبل أن يكونوا في ذلك الموقف الذي أوضحه وأجلاه تبارك وتعالى، وكأن الْمُخَاطَب يعاينه أمامه من دقة البيان، ووصف الحال. كما أن في هذا تحذير بياني بما سيكون عليه حالهم قبل أن يكون. ليكون في ذلك تحذير وإنذار وموعظة، وإقامة للحجة، ببيان ما سيقع قبل أن يقع. وإجلاء شيء من الغيب قبل انكشافه وتحققه. ليكون الإنسان على بصيرة من ربه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن أساء فقد أساء على نفسه. فلا يلوم الإنسان إلا نفسه.

ثم يخبر الله تعالى هؤلاء المكذبين الذين يصطلون بعذاب جهنم ما عليه المؤمنون من الفوز العظيم والجزاء الكريم ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فإن كنتم في جهنم تصطلون، فإن من اشتغلتم بالاستهزاء بهم في الحياة الدنيا فإنهم هم الفائزون اليوم برضوان الله تعالى وجناته. ونسب الجزاء له سبحانه وتعالى تكريما لهم، وإثبات لما سيكونون عليه في الآخرة ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ فبصبرهم على طاعة ربهم عَزَّ وجل، وعلى ما كان منكم من الأذى، لرغبتهم في الفوز بما عند الله تعالى، ورغبتكم أنتم أن يرجعوا عما كانوا عليه من الإيمان والطاعة لربهم تبارك وتعالى. ولكنهم لم يُؤثروا الدنيا على الآخرة كما هو حالكم في الدنيا، مما يفيد: أهمية الصبر على الطاعة، والصبر عن التأثر بفتنة الفاتنين. ولذلك الصبر الذي كان منهم، فإنهم اليوم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فإنهم هم المخصوصون بالفوز لا أنتم أيها المكذبون الضالون. فإنهم هم الذين فازوا بالنعيم المقيم، والنجاة من العذاب الذي أنتم فيه ماكثون. وفي هذا الإخبار لهم بحال المؤمنين، زيادة في العذاب النفسي، إذ يزيدهم ذلك حسرة وندامة. وفيه موعظة لكل أحد من الكفرة، وخاصة من ينشغل بالاستهزاء بالمؤمنين، بأن يتركوا ذلك عنهم، ويتجهوا لما ينفعهم في آخرتهم. وفيه بيان لما سيكون عليه شأن الناس في الآخرة بعد الدنيا. وفيه إثبات البعث، والحساب والجزاء. كما فيه بشارة للمؤمنين، بأن الله تعالى سيقتص لهم ممن استهزأ بهم.

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ
إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا
تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل
رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

يستمر السياق الكريم في توضيح وعرض ما هو قادم لأهل النار وكأنه مشهد حاضر يعيشونه، فيقول الله تعالى لأهل النار الذين طلبوا إعادتهم للأرض، حتى يُطيعوا ربهم ﴿ **قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ** ﴾ يقول تبارك وتعالى على سبيل اللوم والتقريع لما كان منهم ﴿ **قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ** ﴾ ما المدة الزمنية التي مكثتموها ﴿ **فِي ٱلۡأَرۡضِ** ﴾ من السنين عددا. سؤال يكشف لهم قلة زمن الحياة بالنسبة للآخرة. ليتبين صغر الدنيا وملذاتها وشهواتها أمام الآخرة، في عذابها المقيم على العصاة، وفوز المقيم لمن استقام بالطاعة لربه جَلَّ في علاه. وذلك ليقرروهم بأنفسهم على تلك الحقيقة المتمثلة في المدة الزمنية ﴿ **قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ** ﴾ فقد احتقروا مدة لبثهم في الدنيا عندما عاينوا وعايشوا الأهوال والعذاب. فما أصغره وأقله من زمن، أمام ما يواجهون ﴿ **قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ** ﴾ استقصروا زمن لبثهم في الدنيا قياساً على ما هم فيه من العذاب الشديد في الآخرة، حتى أنساهم ذلك العذاب تقدير زمن حياتهم الدنيا التي عاشوها، فقدروه على سبيل التخمين ﴿ **يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ** ﴾ يوم كامل، أو جزء من يوم، إنه ليس بالطويل في مدته الزمنية.

فقد تقلص زمن الحياة الدنيا في أذهانهم، وكأن حالهم يقول: ما أقصره من زمن، وما أقصرها من متعة، فقد كان الأولى أن نستخدم ذلك الزمن القصير ونستغله لهذا الزمن الطويل الذي لا ينتهي. ولذلك طلبوا سؤال المتمكنين من العد والحساب عما لبثوا من الزمن ﴿ **فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ** ﴾ وهم الواثقين من العد. فلهول ما أصابهم أحالوا على غيرهم الإجابة الحقيقية، فقد أنساهم ما هم فيه من العذاب عدد سنين ما مكثوا في الحياة الدنيا.

فيخبرهم الله تعالى بقلة لبثهم في الدنيا، أو في الأرض عموماً ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ لم تلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير. لأن مكثهم في الأرض وإن طال قياساً على الآخرة فإنه منقضي ومنتهي، ومكثهم في العذاب لا ينتهي. فسماه سبحانه وتعالى قليلاً قياساً على الآخرة. ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ لو كنتم تعلمون قدر لبثكم في الدنيا، قياساً على الآخرة لَمَا استطلتم مدة الدنيا وقضيتم وقتكم في الشهوات والملاهي والكفر. ويفهم منه كذلك: لو علمتم قِصر مدة اتباعكم لشهواتكم، وزمن كفركم، قياساً على عذاب الآخرة لأطعتم واهتديتم، ولكن غروركم أنكأ بكم. لكنكم استطلتم الدنيا عندما كنتم فيها، ولم تقدروها بالقدر الحقيقي لها. بل كذبتم بالآخرة. فلو صبرتم فيها على طاعة ربكم لفزتم كما فاز المؤمنون الذين انشغلتم بالاستهزاء والسخرية بإيمانهم وطاعتهم. وفي هذا كشف لخطأ مقاييسهم التي أوردتهم هذه المهالك، فاثروا اللذة الفانية على الباقية، وآثروا الشهوات وحب الاستعلاء على التواضع للحق، وآثروا السريع الفاني على النعيم الباقي، الذي لا يزول ولا يفنى ولا يحول. وفي هذا تعليم وإرشاد للعباد بالحقائق التي يجب أن يدركوها إدراكاً حقيقياً. وأن لا ينزلقوا وراء الشهوات والشبهات، فيضيع مستقبلهم الباقي الذي لا يفنى ولا يزول.

ومن دقائق البيان أنه ورد الإخبار بمدة اللبث في الأرض بأسلوب التقرير ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ تقرير قلة المكث فيها. فهو أمر مقطوع به حقيقة، بينما ورد توبيخهم بصيغة التجهيل لهم بما كان يجب عليهم ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ بما يفيد السامع والتالي للقرآن العظيم أن يفهم ذلك ويفطن له، ويدركه بأسلوب المقارنة بين قلة أيام الدنيا، مهما كانت في نظره طويلة وماتعة، وبين مدة الآخرة مهما استبعدها واستطالها. لأن غاية القرآن هو تعليم وإرشاد الحي من الناس إلى صلاحه وفلاحه ونجاته؛ بما يبينه له من الحقائق التي يجب عليه أن يدركها إدراكاً حقيقياً، فينتفع بها. فيعلمه القرآن العظيم ويرشده بأسلوب المقارنة، ليزداد فهماً ووعياً بحاضره ومستقبله، وكيف يسلك فيه المسلك الذي ينجو به ويفوز. مما يبين أهمية المقارنة في التعليم والوعظ والإرشاد. وأنها وسيلة قوية في كشف الحقائق، ورفع مستوى الذهن في الفهم والتفكير والقياس، ليتعلم ما ينفعه وما يضره على وجه الحقيقة.

ثم ينتقل بهم ربهم إلى بيان حسبانهم الخاطئ، ليتعلم الحي منه تصحيح حساباته وتقديراته، وفهمه للحياة الدنيا وللآخرة بالمنهج الصحيح الذي جاء من الرب الكريم سبحانه وتعالى على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ أتعتقدون وتظنون أنَّا خلقناكم وأوجدناكم على سبيل الإهمال الذي ليس من ورائه هدف وغاية. وبالتالي لا رجوع لكم إلينا. سؤال استنكار

على خطأ حسبانهم، مع نفي صحة ما حسبوه من الظن الخاطئ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ ﴾ أظننتم واعتقدتم بتقديراتكم وقياساتكم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ بأن خلقناكم على سبيل العبث، الذي ليس له محصلة ولا فائدة. وليس لحكمة وغاية أردناها من خلقكم. ألم يكن هذا هو حسبانكم الخاطئ. بسبب غروركم بالدنيا.

وكذلك حسبتم أمراً آخر وهو ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ وأنه لا حياة إلا الحياة الدنيا، فلا بعث، ولا رجوع لربكم للحساب والجزاء. بما يفيد أن خلقكم هو لهدف وغاية، وهو عبادة ربكم تبارك وتعالى. فواجبكم التزامه، وتأدية ما أمركم ربكم به خير قيام. فإنكم عائدون لربكم بالرجوع إليه، حتى يحاسبكم ويجازيكم على ما كان منكم. وهذا دليل على البعث بعد الموت، وعلى الحساب والجزاء. كما يفيد هذا البلاغ من الله تعالى أن هناك منهجاً وضعه ربكم لكم، ولا بد لهذا المنهج من مُبَلِّغ لكم به، وهم المرسلون، الذي خاتمهم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. فمن تأمل بيان ربنا عرف منه ما يترتب عليه من الحقائق الشرعية والقدرية والكونية، بما يفتح الذهن على الحق، وعلى حقائق الوجود.

ثم ينزه الله تعالى ذاته الكريمة عن حسبانهم الباطل ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فتعاظم وتنزه الله عَزَّ وجل عن هذا الظن والحسبان الفاسد الذي حسبتموه لحقيقة الحياة ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ فتقدس الله عَزَّ وجل عن هذا الحسبان الباطل الذي لا يليق به عَزَّ وجل، وعن كل باطل مما يصفه أو يعتقده الجاهلون من الولد والشريك وغيره. فإن الله تعالى هو ﴿ٱلْمَلِكُ ﴾ الذي له كمال وتمام الملك للكون كله، والذي خلق جمع أصناف المملوكات، فهي تحت سلطانه وكمال إرادته، ولا يخرج شيء من ملكه عن سلطانه وإرادته عَزَّ في علاه.

وربكم هو ﴿ٱلْحَقُّ ﴾ سبحانه وتعالى في جميع أقواله وأفعاله. فهو الحق المنافي للباطل في أقواله وأفعاله وملكه، فلا يصدر منه إلا الحق، فيما يخلق، وفيما يُشَرّعُهُ، وفيما يأمر به، وينهى عنه، ويقضي به. فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا سفهاً، تقدس وتنزه عن ذلك جَلَّ في علاه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فلا إله يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، فكل ما عداه مخلوق له، وبالتالي هو المتفرد بالألوهية، كما تفرد بالملك، فتنزه عن الشريك، فلا معبود بحق إلا هو جَلَّ جلاله. ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فهو رب العرش الذي اعتلى على جميع خلقه، وهو سقف الكون. فهو أعظم المخلوقات، وفوق كل مخلوق، فيكون كل شيء من المخلوقات دونه وتحته، فهو رَبَّ العرش العظيم ورَبَّ كل مخلوق. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي هو مالك كل شيء، وخالقه، لأنه رَبَّ العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما تحت

العرش، مقهورون بقدرة الله تعالى[١] وقد وصف الله تبارك وتعال عرشه بصفة ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي: الجميل في عظمته وفي هيئته، وفي بهائه، فهو بهي المنظر، قد استوفى جميع الكمال والجمال والهيئة والشكل والصورة البديعة، التي تليق بكمال وجمال ربه سبحانه وتعالى.

فبعد أن عَظَّم ربنا تبارك وتعالى وقدس ذاته تعظيماً جليلاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه عن كل ما لا يليق به عَزَّ وجل، وما قرره عن ملكه ووحدانيته، وألوهيته، وأنه رب العرش الكريم، ينتقل بعباده إلى الإنذار والوعيد والتهديد لكل من ادَّعى أن مع الله تعالى إلهاً آخر، فينذره بما يستحق من الجزاء. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فمن أدخل معبوداً غيره في عبادته لربه، أو في أي شأن، من غير دليل ولا برهان على ادِّعَائه، وهو الأمر المعجز إثباته ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فإن محاسبته ومجازته على ذلك مقصور على ربه سبحانه وتعالى. فهو الذي يجازيه بما يستحق. مما يفيد قوة الوعيد والتهديد، فإنه هو الذي يختص بعقوبة من ادَّعَى الشريك. وأن العقوبة المستحقة لا تكون إلا من عنده عَزَّ وجل. مما يفيد عظيم جرم الشرك، إذ حظي بأقوى أنواع الوعيد. وفي تقييد دليل الإشراك به جَلَّ جلاله بالبرهان ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ هو إثبات انتفاء الدليل والبرهان، وتعجيز لمن أشرك أن يأتي به. فهو تحدي لمن يَدَّعي ذلك بأن يكون من مقدوره الإتيان ببرهان واحد على الشريك الذي لا وجود له أصلاً؛ إلا ادِّعَاء وزوراً. فعلى المشرك أن يأتي بالمستحيل الذي لا وجود له.

بما يفيد انتفاء القدرة لأنه عَدم، فأنى له أن يثبت ذلك، فيأتي بالبرهان والدليل على شركه. مما يفيد النهي والزجر عن الشرك، وأن حسابه عظيم عند الله تعالى، كما بينه في آيات عديدة بأن مأواه جهنم وبئس المصير. ثم ينفي تبارك وتعالى أن يتحقق للكافر شيئاً من الفوز والفلاح ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فإن السعادة و الفلاح منتفي عن المشركين، وإنما الذي ينال الكفرة هو الخزي والعذاب الشديد، والخسران المبين. فأثبت سبحانه وتعالى أن الشرك كفر ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وأن النجاة والفلاح منتفي عن الكافر، ليثبت بنفي الفلاح عنه عدم النجاة من العذاب، وأنه واقع بالكافرين، وأنه هو مصيرهم. وبالمقابل يكون الفلاح محصور على الموحدين المؤمنين الذين يطيعون الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة المؤمنون بدعوة المؤمنين إلى طلب المغفرة والرحمة من ربهم، فإنه خير الراحمين، قال عَزَّ وجل ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قل يا أيها النبي داعياً ومناجياً

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٩)

ومتوسلاً ربك أن يمحو ذنوبك والمسلمين، وإزالتها، وسترها عن الغير، بعفوك يا ربنا عنها. وأن ترحم حالنا وضعفنا بالإحسان والإنعام والإفضال، والتسديد والتوفيق، كرماً منك وجوداً. لأنك يا الله خير من يرحم.

فقد توجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقُل ﴾ وهو أمر لم يُظهر السياق المقول له بهذا الدعاء، وذلك تحفيزاً وتعميماً، فيشمل المؤمنين وعلى رأسهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهو الْمُخَاطَب والمقصود بالخطاب أولاً، والمؤمنون تبع له، لأنه إنما أنزل القرآن عليه صلى الله عليه وسلم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وقل يا محمد(١) فأمره سبحانه وتعالى بالقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ ﴾ بطلب المغفرة وطلب الرحمة من ربك تبارك وتعالى، ولم يعين المدعو لهم بالمغفرة والرحمة، ليفيد التعميم للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أجمعين. فلم يقل سبحانه وتعالى: قل رب اغفر لي وارحمني. فيخصه بالطلب. بل ورد المأمور به من غير تعيين وتخصيص للمدعو لهم ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ ﴾ وهذا من دقائق البيان وأغراضه وأهدافه، وغزارة دلالته، فنفى القصر والحصر في شخص الداعي الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم ليعم المؤمنين. ولتقتدي به أمته ﴿ وَقُل ﴾ أي: قل يا أيها النبي داعياً ومناجياً ومتوسلاً ربك ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ ﴾ فتوسل إليه بالربوبية ﴿ رَّبِّ ﴾ مما يدل على عظيم ابتداء الدعاء بقول العبد ﴿ رَّبِّ ﴾ ووجَّهَهُ سبحانه وتعالى إلى سؤال المغفرة منه عَزَّ وجل ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ ﴾ يا رب امحو ذنوبي والمسلمين، وأزلها عنَّا، واسترها عن الغير، بعفوك عنها ﴿ وَٱرْحَمْ ﴾ وارحم حالي وضعفي والمسلمين، وذلك بالإحسان والإنعام والإفضال بالتسديد والتوفيق، كرماً منك وجوداً. لأنك يا الله خير من يرحم ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأنت يا رب خير موصوف بالرحمة، وخير من يرحم، بقبول التوبة، وإسداء الرحمة.

وفي هذا دلالة على عظيم هذا الدعاء بهذا السياق الرباني. وفيه محبة الله تعالى للمغفرة والرحمة، إذ دل عليها، وبين صيغة الدعاء بها، وسؤالها، بل أمر بها. ﴿ وَقُل ﴾ وهو فعل توجيه يفيد الأمر به، والحض عليه، والحث على التوسل بهذا النص الكريم. وفي ذلك إثبات المغفرة من الله تعالى لمن يشاء من عباده، وأنها من اختصاصه عَزَّ وجل. وفيه إثبات الرحمة، وأن من صفاته جَلَّ في علاه الرحمة، وهي الإفضال والإحسان والإنعام. وما أمر بها سبحانه وتعالى في شخص النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يريد بفضله وكرمه عَزَّ وجل إتمام نعمته على المسلمين.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣٥/١٧)

وبهذه الدلالة العظيمة من الله تعالى لعباده المؤمنين بأن يسألوه المغفرة والرحمة، يختم الله تبارك وتعالى سورة المؤمنون. وأختم بها بما ختم الله تعالى بها هذه السورة، فأدعوه بذلك الدعاء الكريم: اللهم ربِّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

تم بحمد الله إتمام سورة المؤمنون، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.